فضيلة بهيليل

على هامش صفحة...

قصص

أيها الحلم الجميل...

سأفعل لأجلك كل شيء...

فتحقق....

أنا أفكر..

" أنا أفكر، إذن أنا موجود"

ديكارت

"أنا أفكر، إذن أنا ....."، تحدث في نفسه موغلا في الكتمان خشية أن تسمعه أناه فتقيم عليه الحد، وبأعلى صوت خاطب فاطمة زوجته ممددا على أريكة الأسئلة بانتظار جدل جديد.

- "أنا أظن أن..."قاطعته من خلف باب المطبخ:

- " لا تظن هذه المرة أيضا، ظنك الأول أدخل ابننا السجن والثاني قتل ابنتي وترك قلبي ينزف...، خذ ظنك للجحيم و اتركنا بحالنا ".

لم يجب. حفظ الموال. فتش في التلفزة عن قنوات صرف إشهاري .لم يجد. جال ببصره، عثر على بالوعة صغيرة. هرع إليها، رفع صوت مناجاته قليلا بعد أن رفع غطاء البالوعة وهو يلتفت يمينا وشمالا مرددا كل ما حفظه من تعاويذ.

- "أنا أفكر إذن أنا..."

وقبل أن يتم ردد صوت قادم من عمق البالوعة:

- " موؤود".

نطّ خائفا، بيدين مرتجفتين أعاد الغطاء .من يومها وأد التفكير وعاش كما كان الجميع من حوله يعيشون.

لا يعنيني...

جلست ترتشف قهوتها الصباحية بالشرفة المطلة على الشاطئ. أصوات الباعة بدأت تنتشر هنا وهناك، وصوت الإذاعة الوطنية من هاتفها المحمول يحمل لها زمن العنقة والهاشمي قروابي وأحمد وهبي وغيرهم.

حملت الفنجان ، لثم كلاهما الآخر ، ثم أعادته على الطاولة. كان الشاطئ يمتلئ بشكل فوضوي وسريع كلما مرت الدقائق. وحدهم بائعي أكواب الشاي الصحراوي وبائعي السمك المشوي على الجمر يحفظون بدقة أماكنهم. جلبة ما شدت انتباهها وجعلتها تخل نظام رشفاتها بأن أعادت الفنجان إلى الطاولة ووقفت تستطلع سر ذلك الصوت الذي كان يقترب ثم يبتعد كلما اختلط بصوت بائعي السمك بالجوار.

على أصابع ترددها وقفت فاطنة. تبين لها ظهر شاب مفتول العضلات ممن قل وجودهم، يرتدي قميصا ضيقا بلون زهري وتبانا لكثرة تداخله بلون جسده تخاله شفافا، وأمامه تقف فتاة بخوف، لا تنطق، شعرها الأشقر المصطنع، معقوف للأعلى بشكل فوضوي، وملاءتها السوداء المشدودة بقبضتها من الوسط ترسم

تضاريس جسدها. كان صدره يعلو ويهبط كما كلماته ولعناته التي غسل بها تلك الفتاة، اقتربت فاطنة من الفتاة تحاول أن تهدئ روعها وتدافع عنها قائلة في شجاعة مصطنعة:

-"لا تخافي هيا معي، لا تهتم لأمره، دعيه حتى يهدأ وتحدثا بعيدا عن أنظار المارة هنا" وحاولت أن تمسك يدها فسحبت عنها يدها في عنف قائلة :

-"لا يعنيك...".

لشدة دهشة فاطنة لم تضف شيئا، انصرفت تمضغ لعنات وندم على مجيئها واهتمامها بأمر لا يعنيها مثلما قالت الفتاة.

أيام بعد تلك الحادثة قد مضت، لتصادف أثناء عبورها على إحدى الشوارع ذات صباح رمضاني قائظ شابين كانا يتظاهران كأنهما يفتحان دكانا لهما. أدركت أمها عملية سرقة، فقد كان احدهما يلتفت يمينا ويسارا كأنما يطمئن، سحبت هاتفها، شكت الرقم الأخضر، بسرعة كان الرقم يجيب ...

تذكرت نظرة تلك الفتاة، صرختها أمام الملأ وهي تقول :" لا يعنيك..."، أقفلت الخط تاركة عون الأمن يسأل. في حنق حاولت التظاهر أن الأمر حقا لا يعنيها واصلت باتجاه موقف الحافلات وهي بين الحين والحين تسترق النظر للسارقين داعية عليهما في سرها، مقنعة نفسها، من رأى منكرا فليغيره فإن لم يستطع فبقلبه ، ومضت...

بعد ساعات هاتف يرن بعجل كأنه يحمل نبأ غير سار...

-" أختي، سرق محلنا الجديد عن آخـــــره..."

ضربة باهظة

"إنه لجميل أن تتعلم أن لكل شيء في الحياة ثمن"

باولو كويلو (الخيميائي)

بفرح أجابت:

- "طبعا، سأكون هناك بعد دقائق".

أقفلت سماعة هاتف البشرى وبسرعة خرجت.

على كرسي الانتظار جلست ترقب ساعة الحائط تسبقها دقات قلبها بزمن.ساعات انتظار الأمور الجميلة تتمطط عادة وتطول، نسيت على غير عادتها قراءة المعودتين وآية الكرسي، دقائق...دقات...ها هو الحلم سيتحقق، بينهما مسافة جدار وباب فقط.

خرجت من مكتب المدير بيدها أخيرا عقد التوظيف موقّعا، لم تجد ما تمسح به خجلها، أو تداري به حزنها.

أشاحت بوجهها عن السكرتيرة تسابق درج النزول.نسيت إقفال آخر زر لفستانها، ضامة إليها طرفي قميصها وهي تردد بشفتين مرتجفتين كأنما تقنع نفسها وتزيل هالة ندم قاتل سيظل طول العمر مرافقها :

"لكل شيء في هذه الحياة ثمن".

وراحت دون أن تنتبه لاختلاط أصوات السيارات في الشارع بأصوات نداءات متفرقة هنا وهناك ،سبقتها سرعة السيارة ، فوقعت نهايتَها قبل أول يوم من أيام ندمها.

أقنعة...

تغيّر كل ما فينا... تغيرنا

تغيّر لون بشرتنا

تساقط زهرُ روضتنا

تهاوى سحر ماضينا

تغير كل ما فينا...تغيرنا

"فاروق جويدة"

كان بريق قناعه مبهرا ولا أثر لغبار الغدر عليه، حملته بين أصابع شوقي ورحت ألاطف ذكرياته كما أول لقاء، كانت عيناه تلمعان ببريق شعاع مثير للدهشة وابتسامة مغرية كقطر ندى الربيع . تذكرت أول مواعيدنا بالمحطة كان يناسب مقاس ملامحك، يومه ارتبك حزني بحضرتك وباحت في غفلة مني شهرزادي...

يسهل الانخداع بالأقنعة حين تتزين بوهم الحقيقة.

وضعت قناعك جانبا، علت ابتسامة حزن عالمي وأنا أذكر كيف غسلت المواقف الجادة ملامحك وعرّتك أمامي حين أقبل الندم إليّ على مهل قائلا:" عذرا، فقط اختلطت بقلبي الوجوه

حسبتك هي". شيء ما تبعثر داخل هذه الذات العليلة، كنت أخشى أن تراني وسط ركام من الوجع، ولم أعلم أنك كنت ترقب كيف يستبد الشوق بي في غيابك، وكيف أرسلك إلي كقدر موجع.

وضعت قناعك جانبا ورحت أفتش بصندوق ذكرياتك عن بقية عبث، علني أجد شيئا من براءة سقطت سهوا عن القناع، لربما أعذرك. عثرت على قناع آخر، تأملته بدا أقل وسامة وأكثر مكرا وعبوسا. شعور غريب وأنا أمرر يدي عليه بلطف. ذكّرني بقولك: " كم ستكون الحياة رائعة لأجلنا"، وكم كنت صادقا فالحياة كانت فعلا رائعة لكن بدوننا، بدون أقنعتنا وخياناتنا. لا أعرف لماذا صدقتك وأنا أرى أمامي كل جرائمك وحماقاتك التي عمدا كذّبتُها. عاودني الحنين لذلك القناع البائس لكني أغمضت عيني في أسف وأنا أضعه جانبا بمحاذاة قناعك الأول الجريء.

كنتُ أحزن وحدي وأفتش عن الحزن داخل بقاياك، رغم معرفتي بمدى الألم الذي سأسبّبه لي، قناع آخر وأخر وجرح أعمق وأعمق، ثم بقايا امرأة في النهاية...

جمعت تلك الأقنعة التي بات صراخها يقلقني، في حقد أعدت إخفاءها بذلك الصندوق بعدما نفضتُ ذاكرتي منك،

وتهيأت للرحيل... إلى الأبد...، خطوة، خطوتان صرت أبعُدُهما عن عالمك، سأقفل بابك كي لا يتسرب إليّ الألم مجددا، سأنهي فصول هذه الرواية كما أردت لها أنت ...

وأنا أصل عند عتبة الباب تذكرتُ شيئا، عدتُ إلى ذلك الصندوق الذي كان يخفي أقنعتك، نزعتُ عنّي قناعي مودّعة له، ركنته بجوارها وقد أحكمت إغلاق الصندوق... ثم رحلت...

عناد طيف

لا فتنة دون لغة أمير حروفها التائهة.

زائرة بروايته كانت بحثا لا عنها، لكن عن حزن ذرفتْه ولا تزال،هو يلتقط نقاط ذكراها بينما اقتفت أثره باكية على طرف شوق.

"لا تلحق بها ،التفت وراءك، تريّث قليلا فلغتي على مسافة من جرح و قاب ألَمين وفجيعتين، فجيعة فقداني حرفك وفجيعة احتراق رسائلك على مرمى الذكريات ،تريث،فحروفي تحاول اللحاق بحزنك ،بينهما مسافة مملكة حزن، وبضع من سعادة مشوبة بمستحيل،ليس خفيا أبدا، ورسالة عناد أفرغتُ فيها بعضا من رثاء" وانتحبت.

تشتاقه في صمت الفراشات رغم أن لا فصل ربيع في سنواتها وحدها سنوات قحط ترحل وتحط ، وفاجعة انتظار مراسيل ما عاد يفكر في إرسالها إليها عبر بريد كان جسرا بينهما قبل أن يقفل حسابه زمن بقناع الخديعة الإلكترونية.

وإذ سحبت من الأدراج المنسية لخزانتها صورا كانت قبل عشر سنوات حدّ الضياع تشبهه ، وعنها نفضت غبار الفقد، تدلت من بين حروفها ملامح انكسارات دثرتها أناملها خوفا من سحابة نسيان من الجنوب قد تسافر نحو غرب، غرب سكنه هو فكان منفى لكل حرف خطّته له طمعا في أن يعود بذلك الوجه الحزين وملامح الطفولة المقتولة فيه، وروعة ذاك القلب والعذاب.

تذكرها براءتها المخطوطة على حائط مبكاه يوم أوقف سيارة شوقه أمام باب منزلها فرافقته بلا عناد، يومها كانت أميرته الساذجة الغبية، فقدتْ براءتها بعد اللقاء .ما عاد يزور أحلامها الرقيقة، وحدها الكوابيس جعلت من طيفه بطلا يطل على عجل ويرحل، تاركا لها رسالة طوتها ورمت بها داخل حقيبة يدها دونما اهتمام لمأساتها التي استمرت بعدها، تُردد ما كتبت عنه يوما بمذكرتها:

حقيبة سفر

وقلب مسافر على عجل

وامرأة تنتقل من قدر لقدر

امرأة لم تحض بالترويض

ولم يفهمها رجل

مطر خفيف كأقدام طيف

وغيم حزين وبرق مخيف

وتذكار رجل غادر قلبي بنعليّ صيف

بوجه أشحب من ورق خريف

فتسمع ذاكرتي لنعليه حفيف

و أدرك أن الوقت حتما...

خريف...خريف...خريف...

مشتاقة حد الوجع، كذا فساتينها داخل خزانتها عنه تسأل، وسرير ضم رأسيهما وروحيهما على وسادة حلم جميل لطالما انتظره مثلهما،غادر هو الآخر في صمت مقفلا وراءه باب الشرفة كيما يلتحقان ببقاياه.

"آه يا وجعي ووجع الذاكرة بعدك، يشتاقنا البؤس بإلحاح وتلوي الذكريات السعيدة ذراعينا لحظة شجن،كيف استطاع

قلبك أن يهمل ذاكرتي ويقتلني بكل هذا الحرمان والإهمال؟ كيف استبحت وجعي الذي نزف بمرارة على وسادة بالأمس القريب فقط كانت تحضن رأسك وتعانق بلطف خدك الذي لم يكن أبدا لطيفا؟ أسئلة ما عدت أعرف أجوبة ترضيها غير الصمت، غير القمع، دون أن أحسب حسابا لثورتها ذات يوم على أرض كنتُ قد غسلتها منك قبل عام".

وإلى أن يعود من سفرته الطويلة التي أخذته إلى عاصمة الغرب منذ أكثر من سنة، كانت طرقت كل الأبواب بحثا عن قلب، وإذ عاد، استقبله قلب مثلج من البعد اقتات فاعتاد...

الثأر المرّ

أيَّةُ أُمَّةٍ

عربيةٍ..

تلكَ التي

تغتالُ

أصواتَ البلابِلْ ؟

نزار قباني

فتحت الدولاب تُمسّح بعينيها ملابسه الصغيرة بفوضاها الطفولية ورائحة براءتها لاتزال تعطر الدولاب. غيمة حزن أرّقتها طويلا، وسؤال ظل يخنق حلقها مذ غاب حفيدها يوسف .ذلك الذي أعادها سنوات للوراء فركضت خلفه بخفّة فتاة عشرينية تتظاهر أنها لا تستطيع اللحاق به وهو يهرول ملتفتا فاغرا فاه انتصارا على تلك الجدّة التي احتضنته من أول أيام ولادته بعد وفاة أمه إثر ولادة قيصرية ضاعفت فيها الممرضة كمية البنج، لتغيب بلا رجعة عن هذا العالم المعاق.

حين بلغ يوسف الثالثة من عمره كانت جدته تأخذه لخزانة والدته، تفردها أمامه كقطع الألعاب ليجمعها ثم ينثرها ويرمي ببعضها على جدته منتشيا .فتضحك ساخرة ثم ما تلبث أن تُطلق نحيبا موجعا يرهب الصبي فيحاول شدّ طرف ثوبها لتمسح دمعها بابتسامة مصطنعة لا تليق إلا بصبي كيوسف.

تغلق باب الدولاب بيد، بالأخرى تمسك يد حفيدها مرددة : "رحمك الله يا حبيبة أمك وأسكنك جناته."

مذ اختفى يوسف ما عادت تزور غرفة ابنتها ولا فتحت دولابها .وحدها ملابس حفيدها ظلّت تخلص لها، في صمت تدخل الغرفة وبرهبة وخشوع تفتح الخزانة، تطلع منها ريح زكية تلفحها رائحة ذكراه. تتأمل طويلا سروال الجينز المطوي بفوضى وهو يحاول وضعه كما الجدة .تكاد تسمع خطاه عائدا من المدرسة حاملا بيده نصيبا من قطع الشكولاطة التي تناول رُبعها بالمطعم المدرسي أو حبة إجاص قضم من جانبها العلوي حجم قضمتين صغيرتين تاركا لها ما تبقى من اشتهاء.

اليوم لا شيء من كل هذا .وجه شاحب برقعه سؤال مرقوم بالوجع، وعينان ترهلت مقلتاهما وارتسمت بجانبيهما دماء يوسف

والذيب البشريّ، وحده ذلك السؤال العالق بالحلق كسكينة ظلّ بلا جواب :لماذا اختطفوك يا ولدي، حبيبي، كيف قتلوك؟ كيف استطاع الذيب أن يستلّ أنيابه في حضرة جسدك الملائكي، كيف؟.

ترتسم لها تقاسيم وجهه مرتجفا خائفا وهو يبصر السّكينة الحادة باكيا .فتغرق في نحيب رهيب...

كذبة قاتلة

يَومَ كُنّا وَلا تَسَل كَيفَ كُنّا

نَتَهادى مِنَ الهَوى ما

نَشاءُ

وَعَلَينا مِنَ العَفافِ رَقيبٌ

تَعِبَت في مِراسِهِ الأَهواءُ

" أحمد شوقــي"

رأت قلبه لأول مرة يمتطي فضولها ويمشي إليها على مهل، وتذكار حب يسافر مع كل خفقة حب بحثا عن عالمها البريء، فقط ليقول على مسمع الأشجار المخلصة لعناق الريح، والطيور المغردة لموسم الزهور، وتلك المساحات الخضراء بقلبها كلها تشهد...

- "ستكونين بحياتي كل الأيـــام ، وسأكون لك كل الفصـــول...".

مرّت سنة وأخرى... وها هو عمره يبحث عن أخرى...

كبرياء

وعينُك في البكاء أشدّ فتكاً

من القوس الحَنيّة والسهام

ألا ناشدتُك الرحمن كُفّي

رعاك الله لا تبكي أمامي

يحب البدر شمسا لا يراها

وإن يرَها فذلك في المنام

فلا البدر التقاها في ضُحاها

ولا الشمس استفاقت في الظلام

بولنوار عبد الرزاق

للمرة الأخيرة مُودّعة ، دخلتْ، فانكشف دمعه لامعاً تحت ضوء عمود الشارع الحزين، من الألم بكتْ، من الشوق القادم الذي قبل أن يَحُل أحلَّته، من ليالي سمر صيفية طبع الودّ فيها لون الفرح، من وعود قطعاها وقطّعاها راميَيْن بقاياها على أرضية الغرفة، بسذاجة امرأة قالت:

-"لا تتركني".

وبحزم رجل أجاب:

-"أبـــــداً".

فنَسيتْ بعدها رجاءها، ونقض هو وعدَه لها .وحده الشارع البارد الحزين تَبكيه الذكريات، وبعض من حب وَأدته أنانية الكرامة .

ظل كما هو صامدا، توقعَتْ أن يلتفت، أن يلُمّ قصاصات الذكريات الجميلة التي تراقصت، ثم تناثرت تحت قدميه.

-" ليتَه يلتفت".قالت." سأركض إليه، سأضمّ شوقه."

رداء الذاكرة على صدره يثقُل ويثقل كلّما بلّله مطر الشّوق، ورغم ذلك كابر يرمي الخطى، يجرّ خلفه الرداء، تتمرّغ حواشيه السفلى، تُمَسّح الإسفلت، يرتدُّ إليه كبرياؤه، عازما ألاّ يلتفت...فلا وقت.

إذ ذاك ارتجفت يداها، سقطت منها الزهرة المختبئة خلف ظهرها الذي بدأ ينحني كلما رأته يتابع في كبرياء خطاه .تخور قدماها، لا يزال بهذا القلب البائس شيء منه، من حبّه، من

حنينه، من ذاكرته، ولا يزال هو يجر الرداء هاربا به نحو امرأة أخرى لا تشبهها.

بيدها على الوردة الحمراء تضغط، بلّلها المطر، تنظر...تنتظر، وهو أبدا لا ينظر، يعلم أنها حبّه وكل شيء جميل بحياته رغم الألم، وباسم الكبرياء، يكابر، يرفض أن ينظر حتى لا يهين كرامته، وحده قلبها هناك، بهدوء ...يتشظى ...ينكسر...

خلفها كان المذبوح يستغيث، يرقب ذبول الوردة بيدها، يروم التقاطها، يتتبع نسيما منها، همس متوجعا،لم تنتبه، وحده الهارب بالرداء يشغلها، ووحده المذبوح بحبها في صمت يتذرّى...ينكسر.

لن يعود.

كانت متعلقة به، وكان هو متعلقا بالتذكار. بمكر سألها قبل أن تجمع حقيبتها المبعثرة أشلاؤها على الطاولة:

- هل تعودين؟

ضحكت. وكأنما لتعاقبه، تركته واقفا على سؤاله. أرادت له أن يندم. انتظر أن تلتفت إليه. أقفلت دونها الباب الحديدي. وعبرت شارع العربي بن مهيدي يمتطيها معطفها، تحت مطر الذكرى.

ارتمت داخل سيارة أجرة. راحت تتفقد الأماكن والمحلات التي كانت السيارة تسلكها بها كل يوم إلى الجامعة. لاشيء تغير. بشرٌ، بشر. دكاكين. سلع. وطرقات تتقيأ بشرا. إنها فوضى المدينة بألوانها اللزجة القاتمة، بناياتها المتآكلة الممتدة.

بدت لها الشوارع أكثر ضيقا وتوحشا. كان المطر غادر على عجل.

الثامنة والربع. أنبأتها ساعتها الفضية: "سيفوتني الجزء الأول من المحاضرة. ولكن لا يهم."

قررت تغيير المسار. قالت للسائق: "خذني لشاطئ سيدي منصور رجاء".

من هاتفها النقال.

.نعم.

.أوه... هذه أنت؟

.كعادتك دوما تسأل...قُل صباح الخير أولا.

.أين أنت؟

.في شاطئ سيدي منصور أنتظرك.

.الآن؟

.إذا لم تكن ترغب فلا تأت.

أقفلت الخط.

كثيرا ما قرأت في عينيه ثوراته. وفي شفتيها قرأ هو الانكسار. خالد كان قرأ ذلك كله.

كانت تريد أن تقنع نفسها: "من قال إن المرأة لا تحب إلا رجلا واحدا؟" منذ زمن، أحبت خالد رجلا. وأحبت محمد أديبا أُعجبت بحروفه العنيدة مثلها.

جلست على الشاطئ. كانت تبغي أن تتمثّله، هو محمد. كان البحر هادئا. هناك نحو أفقه نوارس تحلق خلف سفينة تغادر فوق السفن.

.أي لغز تحملين هذه المرة ؟

انتبهت. كان واقفا خلفها. ضحكت تنظر إلى موجة قادمة نحوها.

.كنتُ أعلم أنك ستأتي.

.جاذبية البحر لا تقاوم.

.جاذبية البحر ! فقط؟

جلس قربها. كان لا يحس حزنها المختفي. نظر إليها بطرف نظرة عتاب. كانت مغرية. صوت هذه الموجة المخاتلة، أو أختها، كان يغطي على شرودهما، يسحبهما معا إلى التذكار: كانت أخفت في معطفه بعض تذكاراتها الصغيرة. ركضت نحوه.

التفتت إليه بوجهها كله. كان ساهما. لو تحدثه، مرة أخرى، فأدارته إليها وضمته، كما أول مرة يجلس بجنبها على رمل الشاطئ نفسه. عجزت عن أن تقول له: "أحبه هو أيضا"، مثلما أحبك. أخرج لها من جيبه ورقة.

. مازلت تُؤمن بالرسائل والمواعيد؟

. هي خاطرة.

ارتديا الصمت. رمى حفنة رمل نحو الماء.

. أتمنى أن تعجبك. هي لك وحدك.

كانت تفكر في الآخر. لطالما غبطت كريمة عليه. برغم ذلك أحست رغبتها قوية في أن تقرأ الخاطرة.

. تعجبني كثيرا كلماتك الهاربة منك إلي. تعجبني نظرتك الحائرة.

. أنا لا يعجبني صمتك الثقيل. حزنك الطويل يقلقني.

. سيزول كل شيء.

. أنت مدعوة إلى أمسية شعرية بين الطلاب. سأكون المنشط. أنتظرك.

راحت تقرأ، فيما كان هو قام ونفض الرمل.

حين أفاقت كان قد أفل. تذكرت خالد. أوقفت سيارة أجرة. استعجلت سائقها. في المرآة العاكسة كانت ترى هالة حزنها. وفي خاطرها تردد عتاب من عمق مغارة تماسخت: " لماذا تهديني اليوم، الآن هذه الخاطرة؟" كانت انتظرت أن تتحرك شفتاه: "أحتاجك...أريدك..." أحست أنها قتل فيها فرحتها المنتظرة. واست نفسها بأنه إنما صمت ليغالب بوحه.

دخلت شقته دون طرق. إنه أستاذ جامعي مبتدئ. هي، كانت طالبة في سنتها الجامعية الأخيرة. ها هي واقفة في صمت مكتبته الصغيرة، هزّها سؤالها: "ولكن ما الذي يربطني إليه؟" بقلم على ورقة خطت " سأعود متأخرة هذا المساء، لدي موعد مهم". وخرجت تبحث عن شيء منه.

جلست في خلف القاعة. كانت الأمسية بدأت. أنصتت. كان محمد يلقي قصيدته.

أتاها صوته مسكونا بالشجن. بعثر هوامشها.

لم تصفق في النهاية. دنت منه. عطره هو هو. اشتعلت رغبتها في أن تتشرب أنفاسه. أن تلمس بشرته.

.من الذي كسا المودة ثوب الكفن؟

.أنت.

.أين الورود؟

.أهملتها أنت.

رفعت كعبها تسبقه. لمست جيدها وخدّها وشفتيها أيضا. كانت تتذكر عذوبة أول تواعد، وفي سمعها تتردد عبارة خالد: "الزواج يدمر الحب". ماذا كان لها أن ترد، وهي بين خالد وبين الآخر؟ في مرآتها رأت شفتيها تحركتا "إن مضى لن يعود، أبدا".

مدينة الملح...والعطش

اليوم كان جميلا، يوم من بكاءات مارس، أحقا مارس يبكي مثلما تبكي حروفي بعيدا عنك؟...لا أدري...لكنه بكى ذلك اليوم الذي التقينا فيه ،رأيتُ حلمك أخيرا منبهرا بأنوثتي...رأيتُ خجلك الذي باحت به في هدوء أناملك...أتستحي أناملك من الاقتراب؟...كيف إذن خاطبتني بوحشية على ورق؟...وكيف كانت بريئة ومخيفة كما الغرق؟.

رأيتك أخيرا كما لم يخطر ببالي، لا يزال يلبسك السواد...التقينا في فصل لا يليق بنا أن نحزنه، فلماذا نفضت حبر معطفك الأسود ؟ ولماذا احتميت أنا بما علق منه على طرف ثوبي؟.

كان ينبغي أن تكون لذاكرتي رائحة المطر ولكلماتي لحن الريح والوجع، لكن معطفك ذاك حال مرة أخرى بيننا فلذتُ أنا بالصمت واحتميت أنت داخله كما أول مرة.

بقلبي اجتمعت كل صورنا معا اعتصر الدمع آخر اللحظات، يكاد القلب يصرخ موجوعا، يكاد يركض لصحراء عارية لا تلبس غير الصمت، تكاد الغيمات الربيعية تزم بكفها فمي وتسكتني فلا أبوح، وفي الذات ألف قصة ولوعة تنوح، ليبقى

الوجع أنت داخل قصور هذه الذات، مثل التي زرناها معا.لمَ لم يتوقف الزمن هناك؟ في تلك الواحة لنخلد على لوحة بمحاذاة البحيرة التي لا تلد سوى الضفادع، ووحدها سلحفاة بطيئة كانت تسبح في هدوء أثار إعجابك.

صورك صارت تمطر والذاكرة ما عادت تنكر أنك وحدك مالكها وملكها فكيف وسط جبال الجن إذن تركتها؟ كنت أرقبك قربه، وكان يراقبني هو، وكنت مأخوذا أنت ليس بي... بل بها...بشجيرات تحدّت الملح، تحدّت أرض الجن، تحدّت جبل الديناصور، وبلا خوف بسطت أكفها معانقة لأرض السحر، فأين تركت أنت ما بيننا من سحر ؟ ومثل طفل ساذج...رحلت.

امتلأت منك حتى ما عاد الجسد يسعني، وما عادت الذاكرة تذكرني، بل ذكرتك أنت، وحدك وجبال الجن الشاهقة تغتسل شياطينها بزرقة الصلصال وبياض الملح.كنت أرغب في أن أمسك بيدك، أن تمتد فرحتي كما السواحل... أن أمد يدا إليك والأخرى إلى جبل ملك الجان لعله يخفيها برهة عن كل من رافقونا ولم نرافقهم.

ها أنا اليوم أرى أسمري الحزين يضحك لأول مرة . ينزع معطفه الأسود ويغسل ذاكرة الحزن تلك بكل احتراقي، ليبوح أخيرا أنني وطن وأنه امتداد التاريخ لهذا الوطن، يومها راقبتك بهدوء...أذكر...كما الطفل فرحتَ...ابتسمت...لعبت...ولكنك نسيت أن تمسك بيدي ركضا نحو البحيرة لعلها تغسل خطايانا. ألا تجيد لغتنا غير الخراب... وذاك الاشتهاء، وتلك الموانئ المهجورة في جزر منفانا وخساراتنا...الآن أفهم لماذا نخاف الكلام...لأنه مثل الغولة يبتلع دفعة واحدة أمانينا وأحلامنا التي كانت في البدء ...بريئة ... هل اكتشفت الغولة مبكرا أن براءتنا ستتحول في أرض الصلصال والملح إلى تمرد وجنون ...أننا بعد الآن لن نلتقي في مواعيد بريئة ولا بنوايا بريئة لذلك استعجلت بلع أمانينا؟

يسكنني جنونك... وتسكنك ذاكرتي المبللة بالعشق والانهيارات العاطفية... أنت لم تنتبه...أنت لن تنتبه ...وإلى ذلك الحين يكون العمر قد أفل...سأخبرك يا شاعري الغبي، نعتّك يوما بالغبي فضحكت قائلا

"-أحيانا يكون غبائي صفة جميلة ترتديني."وانتظرت أنا أن تصدق هذه النبوءة .

ها هو القصر القديم...أول مرة نكتشفه ...سائحيْن كنا يمتطينا الفضول، تذكرت لونجة والغول، تذكرت باتول السائح ... تذكرت كل من كانوا ولم نكنهم ...ورحتَ بغرور تعرض رجولتك دونما انتباه لتكسرات الألم داخلي، أما كفاك أنك أيقظت داخلي كل هذا الحزن هذا الجنون، وهذا العالم المقلوب بلا قوانين يسير مع دمي ...موجعة حقا لحظات فراقك، وموجعة أكثر كلماتك عن امرأة مستقبلك التي حتما ...لن تكون أنا...فما السبب؟ ولم كل هذا العطب؟

مرت السنة التي انتظرناها...ثم السنة التي انتظرتنا...ثم السنة التي لم ينتظر فيها أحدنا الآخر...يومذاك... التقينا في موعد كان سببه الأول صدفة عمل... تحدثنا كما لم نفعل سابقا ...غرباء صرنا أنا أنت...بحياء كاذب سألتك:

"-كيف أنت؟."

وبرجولة أنهكها التعب والسياسة التي كانت تأخذ دوما الحصة الأكبر من جلساتنا القليلة قلت:

"-بخير."...

وبعد حديث طويل حاولنا فيه جاهدين استحضار الزمن الماضي، زمن الورقاء التي نقشت بريشها على قلبينا مثلما ينقش النحات رمز امرأة ...رمز وطن...حاولتَ وحاولتُ أنا ، ولكن مدينة الملح التي زرناها وعلقنا عليها أمانينا كانت قد ذابت من الوجع والفراق فنستنا مثلما ذات صيف نسيناها بعد أن غسلنا منها ذاكرتنا وعلقناها على السطح الذي لم نكن نملك غيره، ذات صيف قائظ لتجف على عجل كأنما نستعجل ارتداءها من جديد بعدما زالت عنها كل آثار الذكريات التي كانت يوما ما ... حاضرنا...

أربكني هذا الاكتشاف وخشيت حقا أن يتحول ما كان بيننا إلى أمر عادي فيفقد كل ذاك البريق وتلك الجمالية التي كانت تخلفها كل كلمة نرتشفها دون سابق حلم...

وقبل أن أنهي حديثنا ذاك وخشية من أن ينتهي ما بيننا إلى الأبد قلت وأنا ألوح لك بعد أن ابتعدت خطوات ضياع:

"-لازلت أنتظر أن تكمل ' زمن الورقاء 'أنتظر."...

ابتسامة مشرقة رسمت يومذاك على شفتيك التي نادرا ما تبتسم ... ورحت...

من يومها رحلت...ولم أعثر لك على أثر سوى جزء صغير من جريدة وطنية بخط مرتبك مغتسل بالملح وبالألم والوجع:

"غرق مركب كان يتوجه إلى فرنسا بطريقة غير شرعية ووفاة كل ركابه، من بينهم الشاعر (محمد ثائر)".

قصيدة معلّقة

هي قبل كل شيء" صباح "منير للحب، للقلب، للتيه، للحيرة التي تُولّد الرغبة، رغبة رهيبة في استنطاق الحرف، في اعترافه بخجل، مستعيرة من رقرقة الماء نغمته الساحرة، مُستعدة بخيول معانيه لمواجهة حرب حب طاهر غير ظاهر، هو الحرف الذي سحبني رويدا رويدا لاحتضان تلك الأهازيج التي أطربت روحي، وذاك الحنين الذي سرى بذاكرتي فأحالني غيمة ترقب هبوب عاصفة الكلمات.

هي أنامل ناعمة تجمع شتات الكلمات وتحيله نغما صاخبا حينا فتزفر الذاكرة بالوجع، وهادئا أحيانا كلما التقت أرواح المحبة لتخط على جدران القلب أعذب لحن فيغني العود ويصفق الشعر وأنا بينهما أهتز على وقع تلك الأهازيج، إنها وبلا شك...أهازيج الروح...

لم يكن في نيتي أن أتزيّن بحروف ذلك الديوان الذي أدهش مكتبتي الصغيرة في تلك الليلة، وأنا أستلمه من أستاذتي وصديقتي الدكتورة "صباح لخضاري" ذات مساء معطّر بالودّ، كنتُ أرقبها وهي تخط الإهداء إليّ بفرح شاعر صادق النوايا.

حملت الديوان، قلّبتُ صفحاته على عجل قبل أن أغادر باتجاه المحطة، صوت مبحوح أحسسته يصرخ ورائحة زكية تدلّت من الحروف التي بدت لأول وهلة كأنها هاربة من الديوان، كأنها ترفض أن تظل مسجونة داخل كتاب.

أغلقته مُهرّبة نظري إلى كتاب تاريخ الأدب العربي، وإذا بصخب الحروف داخل الديوان يصل أذني فيرعبني، هل أنا في حقيقة؟ أم أنا في حلم؟ سمعت جلبة رهيبة وما طلع حرف من الديوان .سمعتها كلها تنطق معا وقد اختلطت أصواتها بضرب على عود حزين ألّف بينها، فصار يعزف والحروف تردد في انتظام مذهل.

عدت خطوات للوراء، إنه نفس الكتاب الذي أُهدي إليّ اليوم، ألم تعجبه مكتبتي؟ .كانت ألوان غلافه الداكنة تبوح بسرّ مكبوت طال فأحال لونه من قمحيّ إلى رمادي، أو لعلّه لم يكن رماديا كان أقرب للسواد مثلما أوحى إليّ ضوء غرفتي الخجول، وتلك المرأة التي تنظر بعينين حادّتين كأنما تتحداني لأتحمّل ما استطاع قلبها أن يتحمّله من شوق لم يكن ليشبه شوقي قراءة الديوان بعد كل ما أحدثه من جلبة داخل خزانتي.

كان لباسها الصحراوي الأصيل يبعث في نفسي الغيرة وجرأة عينيها ترهبان حرفي وذاكرتي .حملتُ الديوان، سكتت فجأة أصوات الموسيقى والغناء، وحدها قصيدة" القيثارة "تدلّت من صفحات الكتاب فرُحت بخوف أحاول لملمتها وإعادتها إلى الصفحة ثلاثة وسبعين وقلبي يرتجف خوفا على تلك الكلمات من السقوط...وأنا ألمُّها ضحكتْ...ثم صعدتْ إلى أعلى قريبا من سقف غرفتي بمحاذاة الضوء، وبقيتُ أنا في عجب أضغط على الديوان بيد وبالأخرى أغلق فمي كي لا يفضحني شهيقي فيتسلل لغرفتي من يعكر تلك الدهشة.

وحدها القصيدة ظلت معلّقة في الفضاء، ووحده الديوان ظل مفتوحا على بياض بالصفحة ثلاثة وسبعين.جمعتُ دهشتي وأنا لا أزال أمسك بالديوان:

"-أنت' قيثارة 'غريبة.

في استغراب كأنما لم تتوقع هذا الاتهام سألتْ:

"-أنا؟."

قلتُ وأنا أتظاهر بحضرتها أنني لم أعد خائفة من بقائها معلّقة قرب النور، غير أن ابتسامتها وشتْ لي اكتشافها خوفي الذي ظلّ هالة مرسومة بسجلّ كلماتي الصغير، أحاول ترويضها كي لا ينفلت مني خيط المعنى، وفي شجاعة قلتُ:

"-أجل غريبة، إذ كيف استطعت العزف على آلاف الآلام؟، ما من قيثارة قبلك إلا وللفرح تعزف وللأمل، فكيف جمع المعنى فيك بين ضدين، قيثارة للغناء والطرب وغربة للحنين والشوق والفقد ، فمتى اجتمع الضدان فرح وحزن؟ ثم كيف تختارين مكانا على" الربوة الكئيبة "وعهدي بالربوة ارتفاع الأرض بين سهلين منظرها يُسرّ الناظرين، فهل يعقل أن تكون كئيبة؟.

لم تقل القصيدة شيئا. بدا واضحا أن ثمّة سرّ ما لم أستطع الوصول إليه أو ربما خدشتُ كبرياء معانيها .قلتُ في اعتذار وأنا أنظر إلى الديوان الشّبه منغلق:

"أن تجمع ناظمتك ما بين الربوة البهيجة بقولها" كئيبة " فإنما لغرض في نفسها، غير أني بدأت أشعر أن ثمة شجن خفيّ و شاعرتك تضيف :

"تنوح...وتبوح

آلاف النوتات تنزف

مبادئ مقددة...

لا شك أن قائلتها تصوّر لنا قيثارة روح حزنت وهي ترى أمامها كل شيء جميل، مذبوح، لم يكن باستطاعة قيثارته إلا أن تبوح نائحة مقددة المبادئ مبحوحة الصوت، وما اختيار الشاعرة لقيثارة إلا دلالة على أن النفس تطرب رغم الغربة ورغم الحزن، وأن الحياة تستمر ولا تقف على قلب واحد أو حب."

لم تجب القصيدة، فقط شرّعت نوافذ قوافيها وفي تعب أرسلت تنهدات اهتزت لها روحي، فرُحتُ أضيف ": لا معنى للحياة إلا بالتضاد، ألم يكن غريماس محقا؟ لا معنى للفرح إلا بوجود الحزن ولا معنى للنور إلا بوجود الظلام، كذلك لا معنى لغربتك إلا بوجود ألفة، وأنت قد ألفتْ كلماتك الحزن لذلك كان وقعه بليغا كقول ناظمتك:

"تعزف آلاف الآلام "والأصل تعزف آلاف الأنغام، والنغم من الطرب، والعزف مرتبط بالنغم فكيف استطاعت شاعرتك الجمع بين العزف والألم مضيفة كلمة " آلاف "للدلالة على الكثرة، لأن هذا الألم لم يكن لمرة أو مرتين، بل تعداه ليصبح

بالآلاف حتى لكأن هذه القيثارة استمدت غرابتها من ذلك.إذ كيف يُعقل أن تكون قيثارة طرب عادية وهي لا تعزف للفرح بقدر ما تعزف للألم، فصارت غريبة عن شبيهاتها ، وكان نعتُها بالغريبة نعت مناسب دقيق.

حين تعزف القيثارة فإنها تُطرب الروح وحين تعزف القصيدة فإنها بما في القلب تبوح."

ردّت القصيدة مستطردة:

"آلاف النوتات تنزف

مبادئ مقدّدة.

والصوت المبحوح

يلطم القلب المكويّ

بجمر السؤال"

حاولتُ أن أواسيها بعدما سكنتْ روحي وانشرح قلبي لتلك الكلمات:

"لا تنزف النوتات إلا بما يُلمّ الروح من ألم حين تُقدّد المبادئ ، واختيار ناظمتك لكلمة" مقدّدة "زيادة في دقة الوصف وتعبير عن مدى الاختلاف والاتساع بينها، إذ المعنى المقصود بكلمة قدّد الشيء: بالغ في شقّه، كذا كان أمر هذه القيثارة ينزف نوتات لمبادئ قد انشقّت وتباعدت بشكل مخيف أوجب الحزن . وبحاح الصوت إنما يتأتّى بكثرة الغناء أو الصراخ دون أن يسمع أحد فيكون مبحوحا وهو وصف أنسب للحزن من الصوت العادي."

فجأة سمعتُ طرقا خفيفا على الباب، كان ذلك الشاعر لوركا وهو يحمل بين يديه بعضا من تنوير قرأته على مهل:

"أوه أيّها الجيتار

أنت قلب جُرِح عميقا بخمسة سيوف"

فارتسم بذهني جيتار على شاكلة قلب مجروح بخمسة سيوف بدل أوتار، تشبيه بليغ شخّص حال هذا الجيتار الذي يعزف ألحانا من أجل الآخرين بينما يُجرح ويتحمل مُخفيا ألمه عنهم .لعل الأمر ذاته مع هذه القيثارة الغريبة.

سألتني القصيدة بعد استماعها لما كنت أقول :

"-أتعلمين معنى:

"والصوت المبحوح

يلطم القلب المكويّ

بجمر السؤال"؟.

"-كيف لم أنتبه؟"، قلتُ في نفسي وأنا أعيد وضع الديوان على مكتبي دون أن أهمل الصفحة ثلاثة وسبعين وأنا أعاود قراءة القصيدة المعلقة التي عُلّقت بقلبي ، صاحبتها حساسة حتى في طريقة نسجها للكلمات التي اتسقت وتشاكلت في نظم بديع، فمزجت أصوات الطبيعة بأصوات الحروف، مستعيرة من الماء رقرقته في قولها:"كرتابة رقصة الماء"، ومن الأرض ربوتها في قولها : "على الربوة الكئيبة"، ومن الإنسان أصله كقولها" :فهل يتغير الطين؟" .كأنها تريد أن تقول أن الإنسان لا يتغير، من طبعه القتل والغدر والخيانة، وأن هذه القيثارة رغم كل ما لفّها من حزن ظلّت تعزف ذابحة أحلامها قربانا لهذا الطين الذي لا يأبه ولا يهتم."

كنتُ قد وضعتُ القلم جانبا وأعدت الديوان إلى الرّف بعدما سكنت القصيدة صفحتها مرة أخرى، وهدأت الجلبة داخل قلبي وفكري .اهتزت في تلك اللحظة جدران الغرفة لشدة الرعود الفنية وأضاء أركانها شعاع برق معنى هارب من الديوان وجلستُ أنا حائرة بعدما أدركتُ أن القصيدة قد صارت بقلبي مُعلّقة وأنني في كل مرة سأقف على سرّ من أسرارها.

كان ذلك ما حدّثتني في سرّها" القيثارة "الغريبة.

السقوط حزنا...

بدأت تشعر بحمى تجتاحها لحظة ضعف وقنوط، مثل ذلك الجو الذي كان يبدو له كئيبا، بينما تراه هي جميلا، ربيع بزوابع رملية ساخنة. ربما كان كئيبا، ولكنها أحبته،بصمته، بذرات غباره التي تزعج الوجوه وتغطي الأرصفة، بسمائه الخجولة خلف الضباب، ونسماته المحمومة الساخنة، أحبته لأنه لا توجد مدينة أخرى تفرح لقدوم الربيع مثلما تفرح مدينتها، كانت تفرح به على طريقتها، تُلبس الشوارع أساور الحزن وتُغرق الفيلاج في صمت رهيب.حتى أشجار الصنوبر والعريش كانت هي الأخرى تتواطأ مع حزنها وفرحها فتهتز وتئن معلنة عن بداية فصل الربيع، فلا عجب ألاّ تجد المدينة غير الصمت لتعبر به عن فرحتها.

هاهي الحضارة الجديدة تتسلل ليلا وبهدوء لتنفذ عبر مسامات مدينتها،تحتكر أزقتها ومبانيها،وحدها أحياء " القرابة" كانت تقف في وجه الزمن السريع، تعاكسه في كل شيء، تَلبس وجوها من الصبر وزمنا طويلا للحب، حتى شوارعها، أطفالها، نساؤها، شيوخها.جميعهم ضد هذه السرعة وهذه الحضارة الدخيلة.كان فيهم شيء متأصل من الماضي،كأنما الذاكرة

الجماعية تأبى أن تختزل في كلمة أو علم مثلما فعلوا بتمثال "الشيخ بوعمامة"، ذلك البطل الذي ندين له بالكثير،والذي- تعبيرا عن امتناننا- خلّدناه في تمثال لا يتعدى حجم أي واحد منا،فلماذا نسميها رموزا وأبطالا مادامت تشبهنا وبأحجامنا؟، وكيف اختصروا شخصية ثورية هكذا بإجحاف على طريق كانت مُعدّة مُسبقا للنسيان؟.

اتصلت به في هذه المدينة المليئة بالتناقضات كما الهند، الحرية المفرطة والمباحات الحضارية وبالمقابل العادات القبلية الجائرة التي صارت ضريبة جبائية يدفعها أبناؤها مسبقا ودون سابق تحذير.كانت بحاجة لتفرغ ذاكرتها المملوءة بهذه الضرائب، تبحث عن عالمه الذي تلوذ إليه كلما ضاقت بها شرايين المدينة، بسرعة شكلت أرقامه السحرية، جاءها صوته مُكسّرا لتلك القيود، عابرا الجسر الحديدي المعلق منذ الاحتلال الفرنسي، عابرا أيضا شوارع الفيلاج ليصل إليها:

-"مرحبا...أين أنت؟".

-"أنا قريبة من مكتبك...أشعر بضيق" ثم أضافت :" هل أنت بالمكتب؟".

أجاب كعادته بلغة الأمر قائلا :

-"أنتظرك".

ما أجمل تلك اللحظات التي تأتينا بفرحة على سلك هاتف معلق في الهواء.لم تدري أكانت قد سبقت عمرها بعمر أو جاءت مباغتَة لقدر لم يكن مهيأ لها، وإذا بها تعبره ذات صدفة عمل ليصبح بعد ذلك قدرها المنتظر.

الوقت رمل. والمدينة ترسم ببراءة ملامحها من خلال خطوات أبنائها الذين عادة ما يتمطّطون بالشوارع في مثل هذا الوقت المقارب للعصر .

وصلت إلى ذلك المكان الرسمي بشعاراته المنافقة "من الشعب وإلى الشعب" ، ضحكت على هذه الجملة الساذجة، كان الأجدر لو كُتب "من الشعب وإلى النهب ".قالت.

اختصرت السلالم بشيء من السعادة القاسية، كان مكتبه في آخر الرواق، وكانت تقف بأصابع أحلامها على آخر درجة من تلك السلالم، بخطوات مثل فرس البرّ قفزت عَبرها على عجل.

بالدرج الأخير التقطت أنفاسها التي تركتها خلفها تسابق الشوق، وانتظرت أن يلحق بها طرف ثوبها لتصل مرتبة.

ولجت مكتبه، رائحة سجائر وقامة شوق، وقوسان مغلقان بينهما.

استقبلها وهو يفرد الملفات على عجل أو ربما على ضجر، ليضعها داخل الخزانة التي كانت شبه مفتوحة، تسلّل الصدأ خلسة إلى حواشيها،كأنما بذلك يخفي ذاكرته التي صدئت من المكوث على هامش العمر.

-"تتشابه كثيرا أنت وملفاتك، تدفن أسرارها داخل تلك الخزانة بينما تدفن آلامك داخل ذاكرتي،أو هكذا يُخيل إليّ".في سرها قالت.

-"مرحبا...تفضلي".

شكرته بصمت، ثم جلست على كرسي لم يكن مُعدا بالضرورة لشخص نزيه أو ذي قيم، أجابته بعد أن رمت حقيبة يدها جانبا:

-" تبدو مشغولا".

-" ليس تماما، بقيت بعض الملفات وأنهي عمل اليوم"،صمت قليلا كمن يستدرك أمرا محرجا:"كما أني أحتاج أن أكلمك في موضوع مهم".

-"خيرا إن شاء الله".

لم يرد، أدركت أن الأمر حقا مهم ولا يسُر أيضا .كان لا يزال مشغولا بالملفات، يقلبها كما يقلب الطبيب شخصا ميتا، ثم تخلص منها جميعا وملأ بها تلك الخزانة، ليجلس مقابلا لذاكرتها.تحدثا معا، وكما تعوّدا دوما يسرقان اللحظات الجميلة في ذلك المكتب، يتحاوران، يتجادلان،يضحكان ملء حسراتهما ثم يفترقان.كان المكان الوحيد الذي يتيح لهما فرص الحديث النادرة،في هذا المكان ناقشا أحلاما كثيرة، خططا معا لمستقبلهما الذي خالاه جميلا، وفصلا في قضية عملها بعد الزواج.

ها هو اليوم يرفع بوجهها أشرعة التحدي، مشرعا نافذة الجرح على مصراعيها ليقول لها دون سابق حلم:

-"تعلمين يا حياتي أنني لا أحب الحلول الوسطى، ولا أريح عندي من الحلول القطعية والإجابات الواضحة، إما "نعم" أو "لا".

كان يمهّدها لألم أكبر ولم تكن بعد تدري أنه سيغير مسار عمرهما للأبد بإحدى هاتين الكلمتين القاطعتين، أجابته بابتسامتها المعهودة :

-"بلى، يوجد ما بينهما".

ابتسم وواصل حديثه كأنه يعيد صياغته من جديد، ولأنه رجل يعشق الإجابات القطعية فقد قطع حبل حبهما قائلا:

-"حسمتُ أمري، لا أريدك أن تعملي بعد الزواج، وإن كنت ترغبين في ذلك، فأتمنى أن تجدي الرجل المناسب، لقد قرّرت وانتهى الأمر".

قالها إذن "لقد قرّرت"، فمسبقا كان قد قرّر وغير ما اتفقا عليه ذات مساء، وها هو اليوم يتبرأ من تلك اللحظة أو تعيد محوها ليرسمها من جديد على طريقته.

ووسط الارتباك والفوضى، ووسط الحزن والخيبة ، حملت حقيبة يدها المثقلة مثلها بالأوهام، تصطنع ابتسامة بلا معنى، وربما ابتسامة لا تليق بذلك المقام، فهو رجل التحدي كان يقول

لها دوما على حافة الجراح: "لكل مقام مقال "،فكيف ابتسمت في مقام يدعو للبكاء وهي تعلم أن الوقت حزن؟.

ودعته وخرجت تائهة تبحث عن خطى أضاعتها في تلك السلالم التي عبرتها سابقا على عجل، الآن لم تعد قادرة على النزول، إنه حتما السقوط المفاجئ، والزلزال الذي يضرب عمق أعماقنا فيحدث أكبر انزلاق في الذات، ليترك بعد ذلك أكثر مناطقنا هشاشة تتشوه بالشقوق والحفر وبالوجع أيضا.

كانت تنزل من السلالم وهي تدرك أنها تنزل بحبها إلى الحضيض، إلى أسفل، إنه الموت حبا وحماقة وجنونا.كانت تنزل و هي توقن أنها بعد الآن لن تطأ تلك السلالم على عجل ولا على موعد حب، وأنه لن تجمعها بها بعد الآن سوى علاقة عادية كباقي الأماكن. ما كادت تنزل من السلالم حتى تعثرت وسقطت مثلما تعثر حظها قبلها.

كان الصداع يشتد بها،يطوق رقبتها ويشد بذراعيه معصمها، تمنت أن يكون هذا كله حلما،أتراه حلم؟.

قطعا "لا"إنه الواقع المرّ والزمن الذي أحرقنا فيه مبادئنا في سبيل الظفر بلحظة حب، وإذا بنا نحترق بها ومعها ولأجلها، ثم نتفتت على شاطئ صخري لا يترك فينا سوى الذكريات.

خرجت إلى ذلك الشارع المضطرب،كان لا يزال غاضبا، وزوابعه الرملية ترسم الوجوه الشاحبة مثلها.تذكرت قول صديقتها: "أخشى أن يجعلك تحبيه أولا ثم يلغي موافقته على عملك كما حدث لصديقتي فاطمة".

كانت تمشي ويمشي الحزن معها متنقلا من شارع لشارع.تمنت لحظتها لو أمطرت السماء لتُوقف الزوبعة الرملية وتغسل الطرقات والأشجار لعلها تستطيع أن تغسل قلبها المتخم بالذكريات والألم ...فما أصعب تلك اللحظة وما أقسى السقوط حزنا...

زيـــارة

"الجو بارد الزهرة، غطي راسك جيدا"

"إيه عمتي، من يومها ورأسي بلا عقل".

قلتُ وأنا أعيد وضع شالي البني على رأسي بعدما أزاحته هاته الريح الليلية الباردة دون شعور، وأنا أذكر يوم كنت أرفع المبخر بيد، أدور على الغرف لأعطر جدران المنزل المترهل ذكريات، أنبش بعود صغير قطع الجمر وأنفخها بفمي لتحمرّ وتحمرّ فيئن المبخر ناثرا دخانه عطرا، تاركا خيط التذكار يعود إليك، يوم غادرتني وأنا أحمل المبخر نفسه الذي حملته الزهرة بعدي، أعطر به شاشك الأبيض وعباءتك كلما خرجت لصلاة الجمعة، متمتمة بكل ما حفظتُ من أدعية مستحضرة الأولياء والصالحين.

"ياسيدي بوجمعة، يا سيدي بودخيل، يا رجال الله الصالحين، أسألكم الحفظ والتسهيل للغالي أحمد بن عبد القادر".

رحلت يا كل أملي وأخذت معك حكاياتنا الصغيرة الجميلة التي ملأت عالمنا البسيط.

- أمي، أمي، عطّريني؟ قال سعيد وهو يتبع آثار دخان البخور الذي ملأ كل ركن من أركان البيت، رافعا عباءته البيضاء بينما وضعت الزهرة المبخر بين قدميه وشفتاها تنفرجان عن ابتسامة:

- تشبهه أيها العفريت.

سمعت الحاجة صفية كلامهما وهي غير بعيدة عنهما فهاجت عليها ذكرى ابنها باكية: " من يوم رحلت يا ولدي جفّ دمع الوادي الذي كان يزورنا فيحمل كل ما خلّفت أبقار الحاج عيسى من روث ولّد بعوضا عند بداية كل صيف فثقب جلودنا كما المسامير ليلا...إيــه يا ولدي، كل الهموم تساوت بعد رحيلك، لاشيء صرت أرقبه اليوم غير اللحاق بك.." وتنتحب.

.يكفيك عذابا لنفسك يا لالّا، دعيه يرتاح في قبره.

هزّتها من خلفها كنّتها الزهرة بيد، بالأخرى كانت تحمل صينية شاي معبّق بالشّيبة، التي تضيف لمذاقه عطر الذكرى.

خلف الباب، قابعة وسط حوش الدار، تنظر هذه العجوز إلى هذا الصمت المحلّق من رمل تبحث فيه عن أثر تتعزى به، تتبع

خيوط الشمس لتدفئ هذا الجسد الذي سكنته العلل، شاكية في سرها، في عالم غير الذي هي فيه. "إيه يا ألمي...كل أصحابي تفرقوا وبقيت أنا عود "كلخ" لا يصلح لشيء ".

إلى أعلى رفعت الزهرة إبريق الشاي، تتذكر أيام زوجها أحمد، الذي كان يفترض أن يكون زوجي أنا، حين كان يزهو معها ليلا على صوت القمبري أثناء وعدة "سيدي بلال" وهما في السطح يخطان من المحبة سفرا مرقومة بدايته بجلسة شاي رفيع الجودة، يكون أحضره صهرها حين عودته من المدرسة القرآنية بأدرار، ويقول بابتسامة مكر: "هذا شاي مُسكر فلا تنسي يا زوج أخي أن تشبعيه جمرا." فتومئ بخجل.

. الليل هنا غريب عني والنجوم كذلك، لكنما البرد واحد، برد قاتل بهذا الشتاء الهضابي،كعقاربه التي أودت بحياة ابن جارنا مسعود حين لسعته في ليلة صيف حار فأفاق يبكي فنهرته أمه آمرة إياه بالنوم، غافلة عن أنها تسكن أرضا غير التي سكنتها قبل عام، عقاربها تقتل بصمت كلما اشتدّ الحرّ واقترب شهر الموت شهر أوت، فلا أحد ينجو من ذكَر العقارب "عقرابو" الذي يكسو رجليه زغب كثيف مثير للاشمئزاز".

ثم تستدرك: "نمتي لالّا؟" تقول زهرة وهي تمسد على شعر ابنها الذي وضع رأسه على فخذها مستنشقا عطرها الذي سحره حد النوم، فلم يتحرك، بينما أسندت الحاجة صفية الوسادة معاودة ربط الفولارة بحركة آلية. ثم تتنبه: "ومن أين يأتيني النوم يا بنتي؟ لو اقتصر الأمر على البرد لكان ذلك أهون. وقتنا يا ابنتي كان فيه العجب. لكن رغم ذلك كانت البركة والنية ".

تصمت قليلا. تبصر سعيد وهو يتمتم مجسدا كلامه بحركات متباطئة من يده ثم يعود إلى هيئته الأولى، فتبتسم الحاجة بحنين: " كان هو أيضا يتكلم أثناء نومه. ريحته لن تغادر الدار مادام ابنه فيها. الأبناء ملح الدار، الأبناء نعمة يابنتي".

ترد الزهرة برضا: " الحمد لله على هذه النعمة".

ترتجف شفتا الحاجة عند ذكر سيرة الأبناء. تجاهد النهوض رادّة الوسادة إلى الخلف بين رزمة الفراش وظهرها. تبغي أن تعرف إن كانت الزهرة لا تزال تنصت. وحين اطمأنت بعثرت نظرها في الفراغ. وفي بوح، تهمس:

- أتذكر ما فعلت حماتي بلقيط ابنتها فيرتعش جسمي كلما مرت الصورة بخيالي كأنما ذلك العقرابو لسعني، ويصّاعد النمل

من قدمي جيوش حرب تاتار كلما أبصرتها تسامر حَمِي فيسكر، فتنسل من الخيمة هي وزوجة ابنها باتجاه الزريبة حيث كانت تختبئ وصمة العار، تحمل في يدها مشرطا وقدر ماء مغلى على حطب رتم عتيق، في ليلة مقمرة، تطل عليها "هزي بوتد الزريبة وشدّي بطرف خمارك فمك وإياك أن يسمع أبوك نفسا فتفضحينا يا ابنة الكلب".

تبزغ شمس البراري مبتسمة في حياء على العار البريء الذي وئد تحت رمل مغبرّ بروث الغنم، نهاية بداية لم تكتمل. ليتني ما رأيت. ليتني ما سمعت. وليتني ما كنت هناك يومها.

بجلسة الحنّاء الصغرى للعروس التي دعيت إليها الحاجة صفية وكنتها، أذكر، جلست والدتك تحكي وقد تجمعت بنات العائلة حولها وأنا بينهن أنصت بشوق وأفتش في ملامحها خفية عن أثر منك بكلامها وهي تقول: "يومها خرجتُ مُعطّرة صدري وجيدي، أضع خلخالي الفضي الذي أهدتني إياه أمي قبل أن تتزوج وتتركني. لمحتُه بين شعبة وواد يلوّح لي. وما كنت عرفته ولا رأيته قبلا. اقتربت وأنا أتلفت يمينا وشمالا خشية أن يراني أحد. أدنو، وهو أبدا لا يدنو. كلما تخيّلتني سأصل وجدت المسافة التي بيني

وبينه هي نفسها لم تتقلص خطوة واحدة. حينها أدركت أنه من العالم الآخر تراجعت وهربت."

تضحك الفتيات. تقول إحداهن في تعليق بهيج: "ليتك ذهبت معه وتخلصت منهم جميعا" ترد الحاجة صفية في حسرة :" ليتني فعلت".

مثل ألم تهب ريح شتوية شرسة فتلتفّ الزهرة داخل برنوس قديم مزيحة جزءا منه لحماتها التي أعيتها أيامها تمر ولا تمر.

أتسلل كحلم زائرة طيفك ،أفتش في اللحاف عن بقايا منك فلا أجد سوى رائحة الذكرى تسفع وجهي بحرّها، ففي الرماد كان طيفك ينفخ بلا وهاد، وبالأوهام كنت أنا به أتشبث وبعناد.

....

" سعدك يا حليمة واللي رضّعتيني نبينا
سعدك يا حليمة واللي ربّيتيني نبينا "

بهذه الترنيمة افتُتح، كما كل مرة، موسم المولد النبوي. سكان المنطقة يسمونه المولد. لدى حلوله يرددون على السطوح بالبندير ما حُفظ عن الأولين:

" يا عايشة لا ترقدي

حلّي الباب واتصنتي

والليله يزيد النبي ".

وأبدا أذكر غيرتي الأولى من الزهرة وأنا أشهد طوافها على المنازل توزع أكلة "الرّوينة"، التي تعدها نساؤنا من القمح المحمص على النار والمطحون على رحى الحجرة القديمة والمعجون بالماء والسكر والزبدة أحيانا والقرفة أحيانا والمكور كويرات بحجم الكف، يُتصدّق به على الجيران السبعة المقاربين لمنزل والدها، مثلما كانت تطوف أيام صباها بالمنازل حاملة لوحتها التي تحفظ بها القرآن في الكتّاب كلما ختمت حزبا، طارقة الأبواب فيبارك كل من فتح لها بقمح أو شعير أو بيض أو تمر أو دقيق مرتبة كل ذلك في سلتها من السعف، وإن لم يجد فبدعوات بالحفظ وبالتسخير وبالرجل الصالح.

لا يزال البرد بين الحين والحين يقرص ذاكرتي فأرده بما احتفظت به وحافظت عليه بعد رحيلك: برنسك الأزرق الذي

أهديتني إياه قبل أن تزوجك عمتي صفية للزهرة ابنة أختها. بمَ فضلتها علي وهي تعلم حبي لك وحبك لي؟ آه عمتي، لا أستطيع أن أسامحك حتى وأنت أمامي في أرذل العمر. كان عنادك الذي قهرني أكبر من غفراني، ومن صبري عليه.

يوم عرسكَ لم أعرف كيف طاوعتني قدماي على الرقص، كأني أبرر لنفسي وللجميع أنني أستطيع نسيانك. رقصتُ كي لا تأسرني غيرتي، كيلا يقتلني حبك. ولم أكن أدرك أني أرسل إليك جسدي حركةً حركةً في بيت "الحضرة " الذي يقام عند " المقدمة"، تلك الصالحة التي كانت تفتح باب منزلها كل جمعة فتقصده النساء بعد صلاة الظهر، وقد أُحميت لهن البنادير الجلدية على النار وفُرش لهنّ في البهو الفسيح، فيرددن مدائح عن الرسول على تصفيق تهتز له كل نفس مسكونة شجنا يثيره ضرب على الدف يهيج إيقاعه الصدور فتلفظ، كما بحر، كل ألم دفين. هذه امرأة تدخل بلا استئذان جاذبة فانحلت عقدة خمارها وانفكت ضفائرها فتطاير شعرها ثم سقطت أرضا بتوقف النقر فهرع إليها بعض أهلها من الحاضرات ورششن على أنفها عطرا وتبخيرة "سبعة وعشرين". أما هذه المرأة الثانية التي جذبت، في الجولة الثانية، فكانت بلا أهل. كانت ترقص داخل الحلقة وقد

حزمت خصرها بخمارها كلما فقدت توازنها شدتها من أحد طرفيه هذه أو تلك من النساء إلى أن غشي عليها وسقطت فقامت المقدْمة صاحبة المنزل وتكفلت بها.

كان طقَس الرقص لا ينتهي إلا مع آخر خيط تغيب فيه الشمس من وراء جنان "حمّو" خلف القصر فتخرج كل واحدة منتشية وقد نفضت حزنها كما تنفض نساء التويزة دقيق السميد المتطاير من حجورهن كلما أنهين فتل الكسكس تحضيرا لوليمة أو عرس.

يومها لم تكن هناك يد تشدني ولا خيط يلف خصري. فقد سقطت بعد ذلك على قدري وانتثرت في عرسك كل أحلامي فداستها قدم أمك وهي تقول لأختها التالية: "أحمد للزهرة والزهرة لأحمد".

أي ريشة رُسمت بها طريق قدري وأي حبر؟ وأي فاجعة استفاقت عليها أمانينا في أواخر ذلك الشهر؟ شهر فرحك وسنة حزني الذي كاد يودي بي للجنون. ذاك المساء بكيت، جننت، تهت. وحدها "سمرا الخديمة" جالستني عند الشعبة المالحة وهي ترى دمعي. أحسست غيظا يخنق صوتها وهي تقول: "أنا ابنة شيخ

قبيلة، أتعلمين؟ كان له أزواج وأبناء، وأمي كانت مملوكته التي أقام لها خلف خيامهم ڤيطونا صغيرا تأوي إليه كلما أنهت أشغالها. كانت تعلّف الماشية وترعى الإبل و تجمع الحطب. لا تعود إلا آخر الليل. وتستفيق قبل آخر نجمة، "نجمة الوضّاح" التي تنبئ بطلوع فجر جديد. يوم وضعتني وأسمتني "سمرا" استنكرتني نساء أبي وكرهني أبناؤه كرها شديدا فعاملوني كما يُعامل العبيد لأني في نظرهم كذلك. لما اشتد عودي تركوا لي مهمة رعي الإبل، فاستضعفني الرعاة وهتكوا عرضي وغدا أمر حملي يخيف أمي المسكينة التي ما تركت عشبة تُسقط الجنين إلا وناولتني إياها من إكليل جبل وقرطوفة وحشائش لم أعرف تسمياتها، دون جدوى، حتى الكمأة السريعة المفعول لم تنفع معها وكأن ابن الخطيئة يتمسك بوالدته كعقاب. أمي تقول "ابن الحرام يلتصق مثل العلقة ". وحين استنفذتْ كل الطرق حزمتْ لي ملابس قليلة داخل قطعة قماش وبعضا من خبز بارد وماء، وأعدّت لي جَملا للسفر. ثم ليلا ودّعتني بالدمع. كنت أحس قلبها ينفطر. سمعت نحيبها تناثر على أرض لم تفرح بها يوما. كتمت صوتها خشية أن يسمعني أحد إخوتي فيذبحني. صبح ذاك استفاق الإخوة، الذين لا

يعترفون لي بأخوة، على سباب لعقته أمي فاطمة ختموه لها بإخلاء الديار".

سكتت "سمرا الخديمة"، تمسح بطرف منديلها الأزرق الملفوف على رأسها دمعا لا بد تساقط جمراً أحرقها بالتذكار. أضافت بحسرة: " قصصهم تشيّب الغراب اللّي عمره ما شاب. وتفرّق أكثر من سحر اليهود بين لحباب". ردّت خالتي مريم، التي جلست بمحاذاة سمرا، واضعة يدا على خدّها وبالأخرى تمسّح فراش الصوف الذي أحضرته فبسطته على الأرض بحنين خفي إلى تذكار من ذلك الزمن: " الله يرحم ترابك يا فاطمة وما شفتي في دنيتك غير العجب".

تابعت سمرا بعدما استفسرتُ منها: "ولمَ لم يتدخل والدك وهو رجل حق كما سمعت؟" تنهدتْ. أحسست أني نكأت لها جرحا لم يندمل تماما. قالت، كأنها تنفخ في بوغة تذكار توهّج جمره من جديد: "والدي كان في حكم الله. لا من درى ولا من خبر ليه جاب. وأمي، آه يا أمي!" استحثتها خالتي مريم في استغراب: "وماذا حدث لك ولوالدتك الوليّة المسكينة؟"

قالت: "في تلك الصبيحة حزمتُ أمتعتي القليلة ورحلت. كانت أمي قضت نحبها في جبل عنتر بعدما شلها البرد وجمد حركة دمها. كان ذلك فاجعة هدّتني".

أنهت حديثها حين رأت موكب عرسكَ مقبلا. ذلك قطع كل أمل في اجتماعي بك ثانية وفتح لسمرا بابا آخر استعرضت عبره حزنها على الحاضرين. فرقصت ورقصت. من الغبن أنا صفقت. هززتُ. رقصتُ أيضا.

الآن أستفيق من ذكرى مرت كحلم في لحظة من لحظات حياتي. تعاودني أماسي الطبل والبندير وأصوات "الغايطة" أسمعها من هذا البيت أو ذاك حيث يقام عرس أو احتفال، على رجْع صدى طلقات البارود والزغاريد، وفي فؤادي للرّغبة كل ما منع وزجر. منك الزهو والفرح. مني جَلَد الطبل على القرع يا حلمي فانفخ من ودّك بروحي ودع "السي لحبيب" يغنّي إلى آخر الليل موّالا يشبه موّالي.

لا تزال الزهرة وحماتها تنامان متوسدتين رزمة الذكرى وسعيد ابنك يتوسد ركبة أمه وأنا مستيقظة أقلب جرحي على نار غيرتي كلما رأيتها تذكرك. أتراني صرتُ أتتبع أخبارك وأبحث عنك

في كل الأماكن والأشياء؟ أجننت كما المقاول الذي أتلف عقله حب الخامسة؟

يسألني من حيث لا يبصرون: "من تكون الخامسة؟"

- ذكر الشيخ سليمان لمّا جلس ذات مساء مسندا ظهر ذكرياته على جدار الحاج الشّيخ، بعد أن كان ابن أحد مقاولي المدينة سأله عن امرأة سكنت قلب والده فأوصى لها بنصف تركته ولم تكن أقامت عنده إلا أوائل أيام عرسها ثم لم تصبح بعدها، متأملا شجيرات الرّتم المزهرة ممررا يده اليسرى على لحيته المتناسل فيها بياض ضارٍ، ثم شقّ ورقة شمة بأصابعه الغليظة ملأها تبغا وكورها فدحاها بين لثته وشفته السفلى ثم بصق أمامه على الأرض، غضبا على المقاول الذي اغتصب منه حبه للخامسة، راسما بيده اليمنى خطوطا على الرمل: "الخامسة يا ولدي كانت امرأة تغار منها نساء القبيلة ويتمنى وصالها رجالها. يوم وقفت عند مدخل الخيمة لتستقبل أهل العريس الذي كان وافدا معهم أبوك ليأخذوا عروسهم لابنهم لمحها تصطفّ مع جمع من النسوة كعمود خيمة شامخ، وجنتاها مغمّزتان وعيناها بالكحل مرقومتان. من يومها لم تفارق ذهنه حتى حصل له ما أراد.

ولأنها كانت ترغب ابن عمتها زوجا لم يطب لها البقاء مع والدك. أبوها هو الذي أكرهها على ذاك الزواج. ليلة عرسها، قيل، سامرته حتى نام. ثم ارتدت برنسه وسلهامه وتسلحت بخنجره وتلثمت بشاشه العسلي وخرجت من خالْفة الخيمة هاربة. فلم تكشف عن وجهها إلا حين اطمأنت على أنها ابتعدت بما يضمن لها توهيم إن هم لاحقوها. كان الليل يا ولدي بخيلا حتى بنجمة تستبين بها طريقها. وهي كذلك، تبصّر لها رجل عجبا. كان يجلس على حجر كأنه شاهد قبر. سيجارته في فمه لم تنطفئ. تسمّرت خوفا في مكانها للحظات. وإذ أحسّت قدميها تسعفانها على الفرار ركضت. من حين لحين تلتفت فلا ترى من الشبح إلا جمرة سيجارته يخفت احمرارها إلى أن أفلت. وما فارق الخوف نفسها. كان قلبها يحدس الطريق إلى خيمة من يحب. ولكن ما أن طلع فجر تلك الليلة حتى تشرّب الرمل آخر قطرات دم العاشقين الخامسة وعومن. قيل أحضرها ابن عمتها ليلا حين لم يستطع عليها صبرا بعد أن قتل حبيبها. وقيل قتلتهما يد والدك التي امتدت لعنة إليهما. بعدها، قيل أيضا صار صوتها يُسمع بأنين موجع إلى حبيبها كلما هبّت من الغرب ريح باردة فدثرت كل زوج زوجها وأخفت كل أم طفلها وبكت النوق داخل زرائب وهاج حنين العاشق:

" اسقيني لا تعذبيني ... خمر عيونك يسبيني...همس شفايفك بين ثغرك عسل ...وعلى ناسي وأهلي بعدوني...قولوا للي ما عرف كيف الحب ينصاب...أنا ما اخترت لكن عيونك خيروني...قرّب لي يا نديمي ... ومن خمر ريقك اسقيني...واسقيني لا تعذبيني"

ثم جرت قصة الخامسة ومومن على كل لسان في كل الصور. جدتك العجوز، يا ولدي، هي التي نطقت بهذا السر قبل وفاتها بأيام، لما كانت تروي للأحفاد من قصص أشباح الموتى التي كانت تعود ليلا في آخر صورة قتلت عليها. قالت: " المقتول غدرا تصحو روحه ويصرخ دمه مرددا آخر ما نطق." وما أكثر، يا ولدي، ما كانت أرواح أولئك الذين قتلهم الاستعمار!"

تقول زهرة: "حين انتقلنا من الخيمة إلى المدينة الحدودية "سيدي سليمان" بالقرب من فيقيق المغربية، كان أول منازلنا منزلا عتيقا بناه الفرنسيون حين وطئت أقدامهم أرضنا. كان بناء شاسعا وسط المدينة له أربع واجهات كل منها مزينة بأقواس وبين كل قوسين باب كبير يمتد إلى السقف منتهاه ونوافذ كأنها أبواب محكمة بسياج حديدي. فتح والدي البوابة بمفتاح كبير كأنه

لقلعة، ممسكا طرف الباب بدائرة حديدية شبيهة بقرط غولة قائلا: "ادخلوا بحذر". كنت بحجمي الصغير أبدو وكأنني في عالم آخر كبير كبر تلك الأبواب والنوافذ، عميق عمق جرح فراق قبيلتي، كانت أمي تكنس بحذائها الجلدي أرضيتها المليئة ببقايا زجاجات البيرّا الخضراء والبنية وتشرّع النوافذ كأنما لتفسح إلى الأرواح لتغادر. الأروقة واسعة جدا والسقوف عالية. كنا نتبع أمي وهي تشق أمامنا الطريق فتكتشف عدد الغرف وتتأمل تصاميمها. وحين فتحت باباً عريضا من شقين تصّاعد الغبار من أسفله لفح أنوفنا. وطلعت رائحة كأنما للغدر أشبه. وانفرج الفضاء عن قاعة جلوس مربعة بنافذتين كبيرتين وستائر بيضاء أكل الغبار لونها. وعلى الجدار المقابل للباب مدفأة تقليدية كبيرة محشوة ببقايا سمر. اقتربت أمي وأنا خلفها بينما أبي كان يشد على مقبض النافذة محاولا فتحها ليدخل الهواء النقي. انتبهت لأمي شاخصة بفوهة المدفأة تحرك بقطعة حديد صدئة كأنها مسطرة كانت قد التقطتها، ونحن عند مدخل القاعة لعلها لأحد النوافذ، قد شهقت ويدها على صدرها. أسرعت لأرى ما أدهشها. دفعتني خلفها بيدها وغطت المشهد عني بمنديلها. كنت، كما في حلم، لمحت ضفيرةً طويلة لشقراء معقوفة بشريط وردي قد برقع الرماد بهاءه وأظافرَ

طويلة بطلاء أحمر ترقد في صمت. كان أبي، وقد وقف يستطلع الأمر، قال: " هكذا يفعل غالبا سكان الدار الكبيرة". لاحقا، أدركت أن "الدار الكبيرة" تعني الماخور. ثم وجدت من أمي تفسيرا لما وقفنا عليه".

أنظر إليك فلا أجدك. لكني أحسك بينما زهرة وحماتها لا تريانك. وحدي أشاهدك تنتقل سابحا في هذا الفضاء كأن قدميك لا تمشيان على الأرض وصورتك تخترق بك الحواجز وتطوي بك الأماكن.

تستفيق زهرة. تسألني وهي تدير بصرها يمينا وشمالا كأنما بحثا عن مصدر هذه الثغرة التي تسرب لنا كل هذا الهواء البارد:

-"أنت بخير؟"

لماذا تسألني أنا، أتسخر مني وهي تراني أفتش عنك ضائعة بين ظلام هذا الليل وبين هذا الذي يرفض مغادرتي، يلازمني دون أن أراه حقا أو ألمس بعضا منه.لم أتكلم. فقد بلعت الغيرة لساني. أومأت لها فقط برأسي أن "نعم" وهرّبت نظري نحوه، أستحثه على الكلام، فلم يجب. كنت أراه طيفا؟ حقيقة؟ لكنه نظر إلي وقال:"بريق عينك مخيف. أتمنى أن تكوني أنت هي." ضم يديه في

تشابك ثم بلغة الأمر قال:" أرني كفك اليسرى" فبسطتها دونما تردد. ما كاد يلمحها حتى شهق وغطى بيديه وجهه واستدار ضاما رداءه على جسمه وهو يقول: "يدك زهرية. يدك كنزي. أنت هي." قلت: "كيف؟"

سمعتُ نباحاً غير بعيد كلما اقتربنا ارتفع صوته الذي أفزع سعيد فدثرته أمه وأقلق غفوة عمتي صفية التي تعوذت من الشيطان الرجيم، معتقدة أن الكلاب لا تنبح إلا لرؤية أناس من العالم الآخر.

بارد هذا الليل، بارد جدا. والشاحنة لم تعد تسير بوتيرة منتظمة. أزعجت نومنا بعدما حادت عن الطريق المعبد. لم أكن أعرف أين وجهتنا.كلّما سألتُ الزهرة بعثرتْ سؤالي بابتسامتها الهادئة: "سنصل،لم يبق الكثير." حتى عمتي هي الأخرى لم تتقن المراوغة. أجابتني حين ألححت، ممسّدة على رأسي في حنوّ بأننا ذاهبون لأرض رجال الله الصالحين وأنني سأشفى برضاهم وبركاتهم. فلم أفهم. ضحك الطيف بجانبي، ساخرا: "ما يقدر عليا حتى طالب".

تذكرت أني سمعت هذه الكلمة لأول مرة عند الراقي الشرعي الذي كانوا يلقبونه بـ"طالب العفاريت" حين اصطحبتني عنده جارتنا خالتي ربيحة التي كانت قد أصيبت ابنتها مسعودة صديقتي بمس. كنا رفقة والدها الذي أحكم يديها بخمار أسود ورجليها بآخر أحمر عليه رسوم بتلات صفراء. لا أنسى أن الطالب لما اقترب منها وضع يده على جبهتها وردد: "باسم الله أرقيك من كل داء يؤذيك، ومن شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك، بسم الله أرقيك." ثم أردف يتلو آيات "الصافات".

تخبطت مسعودة محاولة التخلص من تلك القيود. تألمت والدتها. تململ والدها. قال الطالب بغضب: "من أنت؟ ولماذا سكنتها؟" فردت مسعودة، التي لم تكن مسعودة: "أنا لم أظلم أحدا هي من تجرأت وسكنت منزلي، بل وأحرقت أطفالي بالماء الساخن في مجرى المياه." قال الطالب: "ولكن المنزل منزلها ولابد أن تغادري أنت وأطفالك، ابحثي عن مكان آخر." تعاند مسعودة التي لم تكن هي: "لن أغادر جسدها حتى تغادر منزلي." يغضب الطالب ويجلد بالسوط قدمي مسعودة فتصرخ: "لن أخرج. قلت لن أخرج حتى ترحل عن داري." يهددها: "سأحرقك." تتخبط مسعودة

ويصمت الصوت داخلها، فيرفع الطالب بالسوط مجددا على قدميها، ويرتفع الصراخ.

رأيت لأول مرة مسعودة بتلك الجرأة وذلك الصوت المخيف الذي لا يشبه صوتها العادي وتلك النظرة التي أرعبتني كلما حولتْ نظرها نحوي. مسعودة ترتجف بين يدي الراقي، ووالدها يشد على يديها بقوة، ووالدتها ترقب قرب الباب واقفة في ذهول، متضرعة، وخديم الراقي غير بعيد عنه بانتظار إشارة منه، وأنا قد سكنني خوف رهيب لم أعرفه يوما. يعاود الطالب تلاوة آيات الرقية "***وحفظا من كل شيطان مارد. لا يسّمّعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب. دحورا ولهم عذاب واصب.***" ترتعد مسعودة. يعاود الطالب تهديده: "تخرجين طوعا أم كرها؟" تعاند: "ما يقدر عليا حتى طالب". يهز الراقي رأسه لخديمه أنِ "افعلْ" فيتجه نحو صندوق أخضر من الخشب. يخرج فتيلة بنّية. يشعل طرفها ويضع طرفها الآخر في يد سيده فيهدد: "سأحرقك، أمازلت عند رأيك؟" فيجيب الصوت نفسه بالحدة ذاتها: "لن أخرج!" يُدخل الطالب الفتيلة في منخر مسعودة فتصرخ بأعلى صوتها متخبطة فيخرج الدخان من المنخر الآخر، ثم تسقط مغشيا عليها. تهرول لها خالتي ربيحة. تحضنها في بكاء خالطته شكوى:

"حسبي الله ونعم الوكيل في اللّي كان السبب، حسبي الله ونعم الوكيل".

تلك المشاهد لا تزال ترعبني، كأنها استوطنت ذاكرتي بالأمس. صوت الطالب لا يفتأ يتردد في مسمعي، طالبا من تلك الجنية أن تختار كيف تخرج، كما صوت مسعودة، الذي لم يكن صوتها: "من النافذة!" حينها، فقط، فُتحت وأخليت الطريق. فاستفاقت مسعودة على هيئتها العادية. حضنتها أمها باكية: "حمدا لله على سلامتك يا كبدي".

الصبح بدأ يجر نسيمه البارد العليل والشمس من خلف جبل "بْرام" تبزغ في حياء جميل. والزهرة تهز ولدها أن استفق. وعمتي صفية في حركة ثقيلة للنهوض تمسح بعينيها أرض الأولياء الصالحين. وأنا مازلت أجلس على شوقي بحثا عنك متعبة، متعبة جدا يا رفيق درب مشتبك. أراك تسكن عالمي بكل تفاصيله ثم تغادرني في هدوء كأن لم تكن.

استدرت لأتأكد من الطيف الذي رافقني طيلة الليل فلم أجده، كأنما تبخر.

ها هي أصوات بدأت ترتفع من تلك الخيام المشمرة ورائحة حساء متبّل بالحشائش الصحراوية اختلطت برائحة قهوة بالشّيح، وصياح أغنام بانتظار النحر لهذا الولي الصالح، وصوت ابن عمي يأتينا من خلف الشاحنة مادّاً يده لمساعدتنا على النزول قبل أن ينزل أمتعتنا ويدقّ أوتاد خيمتنا، وعمتي صفية تردد: "مْسلْمين يا رجال الله الصالحين، مسلمين ليك يا بوحميّر". مثلها، بخشوع نزلتُ.

كانت تلك بداية الوعدة لهذا الموسم.

ذلك كل ما كنت، عن الزيارة، سأحكيه لهؤلاء النساء اللواتي جلسن على كثبان الرمل المحاذي لضريح "سيدي بوجمعة" والمطل على الوادي الذي يفصل القصر عن المدينة، بعدما وجدن باب الضريح مقفلا. قالت لي العمة صفية: "يا بنتي، الحمد لله اللي سكنك كان مسلم وإلا ما كنا شفناك رجعتي لنا شافية مرة أخرى. يوم كلّمك الطالب كان اللي ساكنك يقول: "أنا سكنت شافية وشافية سكنها أحمد." فاستفسرتُها بخجل: " وماذا قال الطالب؟" أجابتني: "اقرا عليه من كتاب الرحمن وبقدرة الله ورجال لبلاد خرج طايع".

قالت امرأة ممن سمعن الحكاية: "مفروض عليك كل سنة تخرجي زيارة على نفسك." فأومأت، حاملة شمعة من حين لحين أبرم فتيلتها كأنها الروح الذي سكنني قبل أن أشعلها داخل المزار.

بعد انتهاء صلاة الجمعة، ظهر البواب من خلف الجدار الأبيض للضريح وفتح البوابة. فنفضت النسوة رمل كلامهن واتجهن نحو المزار داعيات بالبركات مبتهلات مسلِّمات.

جلستُ قرب الضريح. أزحت النقاب. فاجأتني امرأة قامت تخرج: "يا ربي، وجهك أبيض ناصع وتزينه الشامة على خدك". ضغطت ارتباكي أركز الشمعة بالشمعدان النحاسي. وبعود ثقاب أشعلت الفتيلة فانتشر نورها الخافت وسط برودة العتمة. لحركةٍ خلفي التفتُّ. أبصرتُ طيفا لدى مدخل المزار يرتدي عباءة بيضاء. حرك رأسه في تعب، كأنما بحثا عن شخص مفقود. همس: "شافية!" فصككت خدي، في ذهول، شاهقة: "أحمد؟".

سعادة على حافة البكاء....

كنا نكتشف بعضنا بشيء من الصمت وقليل من البساطة،كنا نلبس أقنعة التخفي ونختفي وراء ذاكرتنا المرقعة بالإخفاقات العاطفية والانتظارات الطويلة المدى، ودون علم مني رُحت أكشف لك نواياي البريئة، بغباء امرأة تعترف في أول وهلة بأول شعور.لم أكن بعد قد قرأت شفرات قاموسك ولم أفهم ألغازك،كان ينبغي أن أدخل عالمك المتناقض بكل أجزائه، بتفاصيله المتراقصة كأضواء مدينة حزينة لأكشف نواياك وأفهم لغتك قبل أن أعبُرها.

كل يوم تقربني منك براعتك، جمال كذبك، ذكاؤك...وكل يوم كنت تلتقط نقاط ضعفي المتتالية نقطة نقطة، تجمعها في كتابك لربما فكرت يوما أن تشي بي في محكمة لا تحتاج دليلا غير قلبي ولا يوقع عليها أكثر من شاهد واحد هو أنت.

وذات مساء بإحدى المطاعم المتواضعة التي تضع زجاجا أسودا حتى لا تكشف هويتَك، ارتجلنا طاولة غذاء لا يحتاج إلى الكثير من البهارات فكلماتنا كانت تكفي لتنكيهه ولا لكثير

من الماء فنحن بطبعنا نمتهن العطش. التقينا بعد زمن طويل، وجها لوجه، حبا بحب، وربما تعبا بتعب....التقينا أخيرا...

كنا نختبر حبنا بلوعة الفراق وبعمق الجرح وباحتمال أن يعيش الواحد منا بلا الثاني، وحده الفراق كان يذكرنا بعمق حبنا، ووحده الجرح كان يزيدنا اشتياقا لجراحات حب أخرى. غير أننا ما كنا نرضى بأن نعالج جراحنا ولا أن نستشير أطباء جراحين،كان يكفينا فقط أن نتفرج على حجم خسائرنا ونكتب بدمائنا ما لم نستطع البوح به، تلك هي الطريقة التي كنا نختبر بها الحب.فلا عجب أن نعرف مقدار الحب بمقياس يمشي عكس الحب، نختبره بسلم الفراق ونقيس درجاته على سلم الجرح مثلما نقيس قوة الزلازل على سلم ريشتر. بضدها تُعرف الأشياء، بفراقنا فقط كنا نُدرك كم نحتاج أن نبقى جنبا إلى جنب بجوار اللحظات، فلماذا تسابقنا نحو القتل ؟ ولماذا بكلمتين حفرنا لأنفسنا وليمة قبر ؟.

رأيتُك أخيرا...كما كنت أشتهي، بالرجولة ذاتها ، بجمال كذبك المذهل، قبلك لم أكن أهتم كم رجلا أحبني وكم رجلا قتلت...قبلك لم يكن لي اهتمام بذاكرة أي رجل يقف في طريق

عواطفي...قبلك لم أع عمق الخسارات ولا مخلفات دمار القلوب التي كنتُ أتركها ورائي ولا أن أعرف عدد الضحايا الذين سقطوا بساحتي...هذه المرة لن تذهب وحدك إلى الفاجعة سعيدا، تعلمتُ أن أبدأ فاجعتك، أترك لك فرصة اختيار العرض، ثم وبسرعة أُوقعها كوثيقة سرية أرميها داخل حقيبة حلم، فحقيبة الأحلام هي الحقيبة الوحيدة التي لا تمتلئ مهما كثُرت الأحلام أو كبُرت.

وقبل أن تطلب من النادل أن يأتينا بقائمة الأقلام لنكتب شيئا يشبهنا وعلى ذوقنا معا،قلت لي:

-" ماذا تشربين؟".

أجبتُ بثقة:-"قهوة مُرة بلا ذاكرة ".لطالما حملت لي فناجين القهوة ذكرياتك وقصصك معي ومع طرف آخر كان دوما ثالثنا ألا وهو السيجارة ، ها قد أحرقنا كل الفصول ووقفنا نتفرج اليوم على خسائرنا، وما لقاؤنا اليوم سوى تتمة لحساب ما بقي فينا دون احتراق لنُحرقه اليوم أيضا على هذه الطاولة التي تحمل على ظهرها أكثر من موعد لا يُشبه بالضرورة موعدنا.

-" لما لم ترد على مكالمتي ليلة أمس؟".

لم تُعر كلامي اهتماما فعلمتُ أن السؤال بهذه الطريقة لا يعنيك، أعدت صياغة سؤالي من جديد:

-" أين كنت ليلة أمس؟ توقعت منك اتصالا...".

تمتمت بامتعاض، سحبت نفسا عميقا من سيجارتك ثم دفنت بقاياها على المنفضة الفضية وقلت:

-" تسألين كثيرا...ما الذي يهمك أكثر: أن أتصل بك أم أين كنت؟".

تراجعتُ عن أسئلتي وقلت بحزن:

-" لا شيء...أبدا".

كيف قُلت كلاما لا يشبهني، ولماذا أسأل عنك بالذات بعد أن تواعدنا على النسيان؟.أحرجني قلبي كثيرا وودتُ لو عادت الدقائق القليلة للوراء كي أختم شفتاي فلا تنطقان عنك بشيء.و بدلا من أن تجيب على أسئلتي سألتني:

-"أيهما تفضلين أن أقتل نفسي أو أن تقتليني؟"

فاجأني سؤالك اللامعقول لكني تظاهرتُ باللامبالاة وقلت:

-" لا أتمنى قتلك ولكنك أنت من تقتل نفسك بعنادك .."

وقبل أن أكمل انفجرت ضاحكا بصوت جلب إلينا أنظار من كانوا معنا في المحل، بعدها انتبهت وعدلت من جلستك كأنما استفقت للتو من إغفاءة قصيرة وقلت:

-" أنا رجل ميت فكيف لي أن أقتل نفسي ...لماذا تحبين رجلا يعيش سعيدا بموته؟".

حقا غبية...نسيتُ أنك مت ذات يوم لأنك لم ترض بأن تقول لي:"أحبك...أريدك" أو على الأقل:" إبقي معي ..أحتاجك"...تمنيت لو سمعت منك أي كلمة توقفني عن قرار الرحيل ...لكنك لم تقل شيئا حين قلت لك أريد الرحيل ..لم تفاجأ مثلما يتفاجأ الأبطال في المسلسلات ولم تحزن مثلما يحزن المحبون في الروايات، بل قلت لي في ثقة وهدوء:

-" أتمنى أن تجدي من يفهم جنونك وتسعدي برفقته".

يومها بكيتُ بحرقة شديدة...أذكر...خرجت راكضة بلا عمر...بلا ذاكرة...رميتُ نفسي في أول سيارة أجرة وجدتها أمامي، ولم تكلف نفسك عناء إيقافي.يومها بكيت ملء تعاستي. تخيلتُك ستركض خلفي. تلتقط دمعاتي اليتيمة المتناثرة على الرصيف، أو حتى تصفع قلبي الغبي ليتوقف عن حماقاته ...لكنك لم تفعل ...تركتني هكذا أرحل...أنا لم أطلب منك سوى أن تقول لي بأنك تحبني أو تحتاج إلي ...لكنك كنت مغرورا وتعتبر الحب خطيئة ..رفضت بكل الأشكال أن توجد مفردة بهذه الحروف، وكنت دوما تقول لي:"لا أومن بهذه السخافة "،فلماذا اليوم تعتبر نفسك ميتا حين تخليتُ عنك...لماذا تقول أني قتلتك وقد قتلك عنادك؟.

أخسر رغما عني الأشخاص الأعزاء والأشياء وتربح أنت خساراتي المتكررة وحاجة قلبي إليك. ملأك القدر بالخطايا فملأتُ نفسي منك. امتلأنا معا و أنجبنا قدرا أكبر منا وحبا أجمل منا ولغزا أغرب من الاثنين. أرى نفسي اليوم في عينيك.أرى جنوني وتوسلاتي المبعثرة في الهواء. أرى في عينيك اليوم رحيلي.اكتشاف متأخر هو حبك لي. وموت مبكر لقصتنا معا...حاولتُ دوما أن أملأ فراغاتك وأمحو النقاط المتتالية من على حياتك. تربكني هاته

النقاط لأنها تعني كلاما محذوفا أو كلاما تمنينا قوله فهل كنت ستقولها لي يوما ؟.

أقلقني الجو الذي تراكم مثل صور البشر الذين كانوا يدخلون،يفرغون كؤوسهم مثلنا ثم ينسلون عبر الباب ونحن لا نزال نختار الكلمات وننتقي الحروف التي نتكلم بها. مشكلة الأدباء هي أنهم يشرحون الحب أكثر من أن يعيشوه و دون أن أنتبه تسللت يدك لترفع عن عيني خصلة كانت قد تدلت شوقا و قلت:

-"ليتك كنت لي...ليتني لم أتركك يوما".

إحدى عشرة سنة مرت متُ شوقا لسماع هذا الكلام ...انتظرتُ منك فقط أن تنسبني إليك ...أن تجمع أجزائي داخل قلبك ...أن تومئ ولو بعينيك، كان يكفي فقط أن تؤشر لتجدني معك...لماذا تتأخر الحقيقة دوما...ولماذا يتعاظم حبنا لمن نحب فقط حين ندرك فعلا أننا فقدناه وأنه مستحيل جدا الوصول إليه...لماذا نتأخر في كل شيء حتى في التعبير عن عواطفنا؟ أ لأننا أمة تنتمي إلى العالم المتخلف نتخلف حتى في التعبير عن مشاعرنا؟ أم لأن رجولتك تستحي من الاعتراف؟ لماذا قلت لي هذا الكلام و أنا على ذمة رجل آخر؟...لماذا اليوم؟ ...لماذا الآن؟...

كانت الدموع تتحجر داخل عيني كحبات البرد، ووجهي ينصهر حزنا وحسرة...فكيف اجتمع الضدان في فصل واحد،برد ونار؟...رغم ذلك لم أسمح لنفسي بالبكاء، كنتُ أتفرج ككل مرة على خسائري و ألملمها...

كان الوقت بسرعة البرق،ونحن لا نزال نتحدث، قلت لك بعد أن ابتلعت عيناي دموعي:

-" أمازلت عند قولك بأن الرجال لا يحبون وحدها المرأة تحب؟ أماتزال تعانق غرورك؟".

لم تجب، بدا واضحا أنك لم تتغير، فأضفتُ:

-" لماذا دعوتني إذن وأنت تعلم أنني زوجة لرجل آخر".

-" أردتُ فقط أن أرى حبي في عينيك، أردتُ أن أعرف إن كنت لا تزالين تحبينني ولكن وجودك هنا أكبر دليل على حبك لي".

أهذا فقط ما جعله يدعوني و أنا التي توقعتُ أن يدمر العالم من أجلي؟!..كيف عشت مخدوعة لسنوات عدة بينما زوجي فرحٌ بي وعلى الدوام يبوح لي بحبه ويفتخر، كيف تركتُ أبواب السعادة في قلب زوجي ورحتُ أفتش عنها خارج أسواره

النقية ؟ دوما يقول لي:أحبك، ولم أقلها له يوما منذ أن تزوجنا. أهلي قبلوا به فقبلت دون مناقشة .فكيف لم أنتبه أنه كان عالمي وملاذي وكل الفصول في سنتي.

حملت حقيبتي دون أن ألقي نظرة خلفي ورحتُ لأول مرة بشوق كبير لهذا الزوج الذي ما بخل بحبه يوما ولا أخفاه بل كان فخورا به على الدوام.كنت أمشي بسرعة لم تستوعبها خطواتي لأصحح تفكيري .كثيرا ما لا ننتبه إلى السعادة التي بين أيدينا ونركض بحثا عنها بين أكوام التعاسة والألم ...لنفقد في نهاية المطاف كل شيء...

فتحت الباب على عجل.كان زوجي المسكين على أحر من الجمر ينتظر.قال في عتاب خائف محب :

-" تأخرت عزيزتي...قلقتُ عليك كثيرا".

لم أتكلم...لم أرد بكلمة ولم أترك له فرصة الرد.كان شوقي له وندمي أكبر من أن أقول أي شيء.ارتميت بين ذراعيه باكية ندما وحسرة وشوقا و لعلني أحسست بما هو أكبر من كل ذلك...أحسست بحبي له الذي لم أمنحه فرصة العيش ...اليوم

فقط أدرك معنى الحب الحقيقي البعيد كل البعد عن الأنانية و الغرور..

كان لا يزال مندهشا وربما سعيدا أيضا فقد كانت المرة الأولى التي أعانق أحلامه بجنون وحب، طوقني بذراعيه الدافئتين وقبل أن يسأل قلت والدموع لا تزال تشكل من خدي جدولا صغيرا حاول أن يمسحه بيديه الطاهرتين:

-" ...أحبك...أحبك..."

وأخفيت بين ذراعيه رأسي ... لم يتكلم...لم يقل أي شيء كانت فرحته بي أكبر من أن يفسدها الكلام...وعلمت كم كنت عمياء أبحث عن السعادة في مكان خاطئ وهي أمامي ملء سعادتها.

في المساء عاودني الحنين لزوجي، فصنعت له كعكة عيد ميلاد حب وأنا أردد في نفسي:

"عيد حب سعيد كل عام وأنت بألف خير"

لن ألد مجددا

على صفحات رمل تخط معالمه الرياح كلما قدم الربيع، وبين أشجار الصنوبر وحكايات الحجل الذي غالبا ما يعانق غروب "العين" ليرتاح عند آخر شجيرات "الدزيرة"، عابثا بريشه، متطاولا بغروره المرتجل...بدأت رحلتي وسقط عصر التخلف - كما يزعمون- لتصير العصرنة والتقدم هما الخلف، في ضيق الساعات وعصر الولادات القيصرية التي طبعت مشهد بلدتنا هذه الأيام ، حتى صارت موضة العصر ، ربما هي طريقة جديدة سبقتنا فيها الصين لتحديد النسل ، وبدل أن تُفرض عقوبات مادية على كثيرات الولادة صارت تُفرض جسدية ، فيجعلون من يشاءون بلا أرحام و الباقيات ولادة قيصرية كل ثلاثة أو أربعة أعوام.

جلست أحلم كما الأمهات، كان طفلي جميلا جدا وهو بعد لم ير النور، كنت أحسه يزداد وزنا داخل بطني فيشوهه يوما بعد يوم، وكان زوجي يضحك ملء فرحته كلما أبصرني أتدحرج عبر السلالم تسبقني كرة بطني مثلما كان يحلو له أن يقول.

مضت الأيام والأشهر ، وكبر الحلم داخلي بحجم مدينة تنتظر رئيسا جديدا سيقلب حياتها رأسا على عقب ، رئيس يحلم به الشعب ليمحي مخلفات سابقه السيئة. وكم كانت تزداد فرحتي كلما تأملت ملابسه الصغيرة جدا بحجم لا يزيد على كفي إلا شبرا، وبألوان أسعدتني رؤيتها واستبشرت بها خيرا.

ومثلما جرت عادة الحوامل أن تقمن بإتمام الفحوصات والإجراءات الخاصة، فقد حرصت كل الحرص على أن أتم كل الفحوصات لتكون ولادتي طبيعية، فهذه الأيام نادرة جدا هي الولادات الطبيعية وتبقى الأسباب مجهولة، ربما تحولت مثل هذه العمليات إلى صفقات تجارية هي الأخرى. ولمَ لا مادامت حتى العلاقات الاجتماعية بين الأفراد تبنى على التجارة و المصلحة ولا شيء غير ذلك.

الشهر التاسع قد أطل، فرحة ترتسم لاستقبال هذا المولود وقلق بسبب الولادة ومدى نجاحها. كنت أعلم أن لحظة الولادة كلحظة خروج الروح، وأنه لن يكون سهلا أبدا أمرها، وكنت أعلم أيضا أن زوجي كان سندا لي دوما ورفع من معنوياتي الكثير باعتبار أنه إنسان مثقف و يقدر الموقف، كما أنه كان دائم

الدعاء من أجلي لذلك اطمأن بالي وهدأت نفسي و بقيت أنتظر طفلي بفرحة لم تسعها الأرض، خصوصا و أني عشت مع طفلي وعاش معي تسعة أشهر بكاملها.

وجاء اليوم الموعود، أفقت على الثالثة صباحا و وخز الألم يتسلل إلى جسدي، أهز كتف زوجي ليستفيق على عجل، بسرعة استفاق كأنه كان منذ مدة يتأهب لهذه اللحظة وينتظر. دقائق قليلة مضت ليتغير المشهد كليا: جدران ضاربة إلى الخضرة، نساء مثلي منتفخات البطون، وممرضون لا يأبهون، تراهم يتجولون بين الغرف، منهم الغارق في مكالماته الهاتفية، ومنه من يضحك ملء شدقيه مع رفيقته، وقليلون يلبون نداءات المرضى التي تراكمت من كل الجهات.

كانت أحشائي تتمزق، ولم أكن أهتم لشخص آخر سوى بطني المحدب الذي يوشك أن يسقط على قدمي، حتى زوجي المسكين لم يفهم شيئا، ظل هو ووالدته يبحثان عمن يغيثني و أنا أتقطع ألما، أجول ببصري علّني أقع على ممرضة أتعلق بها مثلما يتعلق الغريق بآخر فرصة للنجاة فلم أجد سوى يد زوجي أمسكت

بها بينما كان هو يحاول التخفيف عني بكل ما حفظه من كلام للصبر ومن أقوال وأدعية تتلى في مثل هذا العسر.

جلست في غرفة منفردة بعد أن أشارت علي إحدى الممرضات أن أنتظر هنا، وفاجأني أن الغرفة لم تكن غرفة ولادة: لا طاولة توليد، لا أدوات طبية، لا أسرّة...كانت فارغة من كل ما يمكنه لأن يوحي لي بأنها خاصة بالتوليد ، وبالفعل حين نظرت للأعلى مستغيثة بالأعلى قرأت على الباب " قاعة الانتظار " فتوترتُ أكثر.

مضت ربع ساعة كل ثانية تساوي سنة، أمسكني زوجي المسكين بقوة ضم خوفي كأنما يحاول أن ينسيني الألم مثلما نفعل أيام الرخاء وهو بعد لم يفهم شيئا لأنه يرى المشهد لأول مرة، أما والدته فقد حاولت أن تجلسني بطريقة سليمة تساعد على الولادة إن حدث و جرت في مكان كهذا، وهي تدعو الله و تستحضر رجاله الصالحين، وحين ضاقت ذرعا ذهبت مهرولة بحثا عن ممرضة تهتم بنا وفاجأها أن الممرضة صرخت في وجهها قائلة:" لدي عشرات النساء على وشك الولادة ، لتنتظر دورها". وما هي إلا لحظات حتى شب النزاع بينهما وأسرع زوجي مهرولا ليفجر هو

الآخر غضبه المكبوت، خصوصا بعدما رأى آلامي و توسلاتي، حينها شعرت باحتقان في وجهي وبضربات متسارعة تخترق قلبي، وبكيت كما لم أبك من قبل. لم يكن بكائي من الألم فحسب و إنما من قلة الاهتمام والإهانة أيضا حتى خّيل إلي أنني سألد هنا وسيشرف زوجي و والدته على توليدي في حجرة حارة لا تصلح إلا لأخذ حمام تدليك ساخن ، في فصل ساخن.

اشتد الشجار والطفل ملّ من الاضطراب والانتظار فكاد يسقط ثائرا، المسكين يسقط على رأسه دون أن يجد من يتلقفه، ليحمل عاهته طوال عمره، وليشهد ذلك على عصره الرديء.

جاءت بقية الفريق الطبي أخيرا بعد أن علت الأصوات، وأُخذت إلى غرفة التوليد مشيا على الآلام، ولم أخف على شيء كخوفي على أن يموت ابني قبل أن يملأ رئتيه هواء الدنيا و يستنشق نسيم الحياة، وصلت للغرفة بعد أن شعرت أنني مشيت ساعات، فحصتني القابلة ليزداد الأمر سوءا وحالتي تدهورا عندما سمعتها تصرخ في وجه الممرضات قائلة أن ضغطي مرتفع، آمرة أن يوضع جهاز مراقبة يكشف درجة الضغط. ولغباء الممرضات أو ربما لعدم اهتمامهن فقد وضعن الجهاز مقابلا

لنظري فزاد ذلك من خوفي و توتري، كنت أنظر إلى الجهاز وأخشى أن يرتفع أكثر فأُحال إلى غرفة العمليات، لحظتها تمنيت لو أني كنت امرأة أميّة لا تعرف القراءة ولا الكتابة ، ولعنت تعليمي فكرهت عالم الأرقام والحسابات....، ورغم تركيزي على الجهاز لم يمنعني ذلك من سماع صراخ المرأة التي كانت بجانبي، كانت تتألم و تستنجد أسماء كثيرة لم أذكرها، وفي لحظة من لحظات الولادة تلك سقطت قطرة دم مارده على حذاء القابلة فازدادت الأخيرة غضبا و صفعتها شاتمة إياها:" لماذا تتزوجن صغيرات مادمتن غير قادرات على الولادة ؟".أفزعني المنظر ورفع ضغطي، ولم أعرف أكانت تلك الصفعة حقدا من الممرضة التي تجاوزت سن الولادة دون زوج وأطفال، أم أنها توهّمتها قطة تلد ثلاث و أربع دفعة واحدة وقد علمت فيما بعد أنها لما كانت توشك على الخروج من المستشفى طلبت رؤية القابلة وحين وقفت أمامها رفعت يدها بحقد للأعلى رادة لها الصفعة ثم قالت:"كنت ضعيفة يومها ولم أستطع أن أرد صفعتك واليوم لم يعد بيننا دين".

انفجر الكيس المائي و انتفضت له كامل أعضاء جسمي، وكدت أفقد الوعي بينما الأطباء يشهدون ارتفاع ضغطي فيدركون صعوبة الموقف لكن لا يتداركونه بحكم اعتيادهم على

مثل هذه الحالة، فالولادة القيصرية صارت موضة، وقد أكون حالة نادرة فعلا لو ولدت طبيعيا، وأنا بين الحياة والموت أسمع السباب و اللعنات و قد ولدت أولانا بعد سيل من اللعنات وجهتها لامرأة كانت قدمت من البادية قبل طلوع الفجر بقليل، ختمتها الممرضة بأن مزقت عباءتها لتصنع منها لفائف للرضيع عقابا لها كونها لم تحضر معها لوازم الطفل...وعندما أدركت عسر حالتي وحرجها استسلمت لخالقي ورحت ألقن نفسي الشهادة و أنا يائسة من نجاتي إلا بمعجزة ، بينما كانت والدة زوجي تدلك ظهري بزيت الزيتون ليخف الألم كما جرت العادة عند الحوامل.

لم أعرف كم من الوقت قد مضى حتى وجدتني ممددة على سرير معلق بمصل من العيار الثقيل، ونفس العيون ترمقني بشفقة وحب ، كنت و أنا أنظر إلى عيون زوجي المحب- الذي تمنى لو استطاع أن يحمل الألم بدلا عني - أشفق على حالتي وأرثيها، كانت عيناه ترثيان لي طفلي ووالدته تقبل جبيني قائلة :" حمدا لله على سلامتك يا ابنتي" ولم تردف "مبروك عليك الضيف"،فأدركت أن فاجعتي كانت فاجعتين وألمي ألمين، ولم أُعقب...

في حياتي لم أتخيل يوما أن الولادة صعبة بهذا الشكل، نظرت لحالتي :" ضعيف هو الإنسان حين يمرض، وضعيف أكثر حين يلتجئ إلى أشخاص يتوسم فيهم الرحمة فلا يجدها، ولولا حب زوجي و خوف أهلي علي لكنت دعوت الله أن يأخذ روحي حتى لا تعذب بتلك الطريقة. كان موضع الجراحة يثير نرفزتي وقلقي بينما زوجي لم يجد ما يفعله لأجلي سوى المكوث معي لساعات طوال وإحضار كل أنواع الأطعمة المغذية طمعا في شفائي بأقرب وقت ...لقد رأى ما لم يره أو يتخيله من قبل، كان يسمع بلحظات الميلاد تلك، وكيف ينتشي الآباء لسماع أول صرخة لأبنائهم ، وأول شخص يزف إليه البشرى قائلا : "مبروك...صرت أبا لطفل يشبه القمر"، المسكين لم يحض بكل هذا الفرح و هاته السعادة ، بل على العكس لقد رأى زوجته تتألم أمامه ، تكابد عناء الولادة بأدق تفاصيلها و أصغر لحظاتها لتلد في النهاية طفلا موؤودا كان يقول لها الأطباء بأنه سليم فتجده قتيل ،كذلك الجبل الذي تمخض فولد فأرا.

مضت سنتان كانت الأيام فيها كفيلة بأن تعيد لي صحتي، رافقني فيها زوجي بالرعاية والدعاء، فتخطيت تلك الأزمة بعد أن قضيت فترة النفاس بلا طفل جالسة كما العروس

أستقبل الضيوف الذين بدلا من أن يحضروا هدايا طفلي كانوا يحضرون أدعيتهم لي بالصبر والشفاء. وضعت في كفي الحناء فقط كي أحترم التقاليد، تلك التقاليد التي لم تكن تحترم مشاعري فتزينت لأجلها و أنا أستعد للحزن على مولودي الموؤود...

....

قبل أن يجلس بجانبي على كرسي الشرفة بانتظار القمر، قلت :" لقد فكرت كثيرا قبل أن أستشيرك في أمر هام "، عدّل من جلسته بقربي ليحضن شوقي بعد يوم كامل من العمل المتواصل، قال بعد أن أمسك يدي يتفقدها ويسبح بعينيه في محيط تلك السماء التي بزغ قمرها فغطى نور الكواكب والنجوم : " تفضلي أميرتي، كلي آذان صاغية ".

قلتُ في صوت خالطه التردد والارتباك :" ألا تعتقد أننا بحاجة إلى طفل يملأ حياتنا؟ طفل يكبر بيننا و معه تكبر أحلامنا ؟ أنا أفكر في الإنجاب مجددا فما رأيك يا..."

ولم أكد أكمل كلامي حتى احتقن وجهه وفاض غضبا وغيضا، قام من مكانه وهو يصيح بصوت أفسد جمال تلك الليلة: " قلت لك ألف مرة لم أعد أرغب بالأطفال، لا أريده مادام يساوي

حياتك، ألم تفهمي بعد ؟ أنسيت ما حدث لك بسببه ؟ أنسيت المعاناة ؟ أنسيت الألم ؟ تريدين أن تموتي ؟...إذا ذكرت هذا الموضوع مجددا فلن أكلمك ما حييت" ...وواصل سيل غضبه مزيحا يدي عن كفه في حركة عدوانية صفق الباب خلفه و اختفى...

نظرتُ إلى القمر وقد غطته بعض السحب الرمادية فتذكرت تفاصيل الولادة ...آلام المخاض...سباب الممرضات...إهمال الأطباء ...عيون زوجي التي كانت تنشدني للبقاء ...ارتعدت فرائسي و تسللت تلك الصور لذاكرتي فقلت أعدُ نفسي وشفتاي ترتجفان: "لـن ألد مجددا..." .

على هامش صفحة

أخشَى عليّ،

وقْد أخْشى عليهِ..

وماأدْري..

أيُسْبَكُ وضّاءٌ..بمُنْطَفِئِ؟

أجتازُ.. والصلَواتُ السبعُ أزمنَتي .وهُدْهُدي غائبٌ.. ما عادَ بِالنبَإِ

إذا انقضَتْ مِئةٌ ضوْئيّةٌ.. فُتِحَتْ . لي بعْدَها مئةٌ.. بالخَبْءِ لمْ تَجِئِ

وَيْلي.. زُمُرّدَتانِ اجْتاحَتا أُفُقي .ولا بِضاعةَ أُزْجِي.. دُونَ مُختبَإِي

فأُغْطِسُ الساقَ في الرُّؤيا، وأرْفعُها . بعْضي يُريدُ، وبعضي غيْرُ مجترِئِ

نجْوَى.. على جبَل الأشواق.. تصلِبُني . شِقَّيْنِ.. في مُرتقًى للشكّ.. مُهْتَرِئِ

"عبد الحاكم بلحيـــا"

انتظرت كثيرا أن تأتي،كان لابد أن تأتي ذات يوم مرصوص الأحزان، دامع النظرات، كئيب المساء، ولكن أكان ضروريا أن تطل من نافذة العطب، أكان ضروريا أن تأتي على حصان أعرج يخطئ الخطى، يتعثر كلما حاول الركض، وأبدا ليس كما الروايات يطير .

مر العمر وتناسيت الأمر وهاهو نفس الحصان يعود بتلك العاهة التي رأيتها فيه آخر مرة ،وكما اعتدنا بقربي جلست، كنت تحكي عن كل الخوارق التي مررت بها،عن كل الملوك الذين طاردوك من بلاد لبلاد، من عجب لأعجب، ومن قلب لآخر لا ينتهي إلا عندي...

بفرح طفولي أعجبت بلباسك الإمبراطوري، قلّبت أجزاءه المتساقطة على كتفك، تأملت طويلا ذلك السيف الذي اعتلاه،أقاتلت به حقا؟ أقتلت به روحا ذات يوم؟ كيف إذن ستحبني وأنت بدل أن تحمل لي زهرة حملت سيفا؟.كنت تحكي بدهشة لم أستوعب معظمها، وتبدأ معي حربا سلمية. هل توجد حقا حرب سلمية؟ كيف وأنت تحمل هذا السيف على كتفك وذاك العرج على حصانك؟.قلتَ بعد أن عدلت شالي الأزرق المتدلي كالذاكرة على كتفي:

-"نلتقي، أنتظرك غدا".

ثم أردفت:

-"في منزلي...سيكون آخر طلب".

آلمني كثيرا هذا الطلب المتكرر منك، وآلمني أكثر قولك أنه سيكون آخر طلب، أهي دعوة سرّية للفراق إذن؟.فكرت كثيرا في طلبك من قبل حتى تآكلت خلايا رأسي، مزعجة جدا تلك القرارات التي تؤلمنا والخطوات التي نمشيها على عجل بألم ونحن نعلم أنها ممنوعة ومحرمة ورغم ذلك نمضي حتى لو قيل فيها حتفنا، أشفقت عليك، أعلم أن المرض بدأ ينخر عظامك، ولحظات الحرمان لسنوات قد فاقت حدود المعقول، وأمام كل هذه التناقضات لم أجد ما أقول. أومأت برأسي أن سآتي،وذهبت.

بثوب مستعار فكرت أن أزورك غدا، أحقا أستطيع أن ألقاك في هذا البلد الكتوم؟. ما أتعسنا حين نسكن مدينة لا تسكننا، بل حين نبحث فيها عن هذه المحبة فلا نجد إلا "تلك" حينها نملأ الذاكرة بكل الفراغات التي نخالها وطن...

سرتُ ورعشة الخوف والرغبة تسكن قلب امرأة ما عادت تدري أهي فاجرة أم طاهرة، كنتُ لا أزال في ذلك الشارع الذي كان يبتلع البشر بخطاهم وخطاياهم، بل لم يكن يسألهم حتى أين وجهتهم، وكنت أدري أنني سأذهب إلى الفاجعة على أصابع ضياعي. في الواجهة أين محل العطور، كان ينبغي أن أتجه يمينا ولكن لا أعلم لماذا دخلته، بما أنني امرأة تهتم بأنوثتها فالمؤكد أن فكرة ابتياع عطر فاتن لن تفوتني. حملت عطرا رأيته أنسب لعرس الوداع، وضعته على عجل داخل حقيبة يدي بعدما عطرت به جيدي ليمتزج برائحة جسدي، دون أن أكثرت لسعره وتابعت النسمات الموصلة إليك علني ألتقيك خارج ذلك المنزل بعيدا عن الريبة والقلق.

تتعبني طلباتك الثقيلة بحجم مدينة عانس تنوح كلما ضاع منها عريس، ما أشفقنا على أنفسنا حين نحاول أن نسمو بحب جميل فنتفاجأ بأننا كنا يوما بعد آخر ننزل به إلى الحضيض، ما أغرب قصصنا والحب...ما أتعس كل من سعوا إليه فجرفهم التيار وساروا عكسه يسبحون طمعا في الوصول، لكن دون أن يصلوا.

طرقة خفيفة ثم طرقتان متتابعتان كانتا كلمة المرور، فتحت مُخفيا جسمك وراء الباب، فاندلفت...أخيرا انتهت لحظات القلق والخوف، حين نتجه نحو الحماقة والخطأ بوعي فمن المؤكد سوف نخاف وتتسارع نبضات قلوبنا عند كل شارع أو منعطف لأننا نشك أن عينا جاسوسة ترقبنا من حيث لا ندري ولا نحتسب.

كيف لامرأة تعشق الورق وتكتب بمداد مستحيل الترويض أن تنسى فكرة ملاقاة رجل أحبت نصفه داخل كتاب ووجدت نصفه الآخر مطروحا في الطريق أيكون مثل المعاني التي قال عنها الجاحظ أنها مطروحة في الطريق؟ وأنا من ركضت إليه بذاكرة امرأة محشوة بالأحلام ووهم الأفلام همّها الوحيد أن تعرف الفعل والفاعل والمفعول به لتجد نفسها لا تقع في النهاية إلاّ على الجمل المبنية للمجهول ولا تعرب إلاّ نائب الفاعل الذي بات أمره يقلقها...امرأة لا تفهم من الحب سوى الرسم على لوحات الجنون سمفونية لا تكتمل، كلما زاد فيها خط اتسعت كمحيط بائس.

آخر مرة حين التقينا، كان هناك مساحة كبيرة للفرجة داخل قلبي بعضها للفرح وبعضها للحزن والكثير الكثير للذكرى.كانت نظراتنا أشبه بتلك التي تحدث الزلازل، تحدث

الزلل، والأكثر من هذا وذاك كانت تخلق الفواجع، فلماذا رميتُ بذاكرتي على هامش صفحة كانت لا تختزل الحزن بقدر ما اختزلت صوري، ولا أتعس وأشقى عند امرأة من أن يقدم شخص تهواه على اختزالها داخل مساحة لا تعدو كونها مستقيما يملأ هوامش الصفحات .

فرح الفؤاد حين أجبت على الهاتف بتلقائيتك الجميلة التي كانت ترسم لك في ذاكرتي ملامح أجمل وأروع من تلك التي يمكن أن يخلفها اتصال:

-" أنا في طريقي إليك"

وسعدتُ كما الأطفال وهم يستعدون لدهشة قد تخلفها رؤية لحديقة سرية ساحرة:

-"حقا؟"...

ولم تجب بعدها...منذ ذلك الاتصال انقطع بيننا كل اتصال لأسكن أنا هامشك وتهرب أنت داخل سواد معطفك، ولم نعلّق...

آه شاعري...كيف صرت شاعرا وقد حملت ذات يوم سيفا على كتفك وعرجا على حصانك...فتجيبني بسخرية:

-"أولم يكن ابن شداد فارسا وشاعرا معا؟".

فأضحك ببلاهة على سذاجتي:

-"نسيت...فقط نسيت...".

يحدث أن يصبح النسيان عدوا يقتحمنا في أكبر اللحظات حماقة ليحرجنا فقط لا غير.

لم أكن أبدا أشبه هيلين ولا كانت لدي جرأة كليوباترا وجمالها فلماذا تحاول أن تجعلني نسخة عن إحداهما وأنا أدرك تماما أنني لا أشبههما سوى في كوني امرأة.

ها أنت اليوم أمامي، تقف بمحاذاة جرحي ...تنتعل صمتك وتمشي إلي على مهل. تصافحنا كما لم نفعل من قبل، قلتَ لي:

-" كيف أنت ...توحشتك بزاف".

أوه شاعري...ما أروع كلماتك حتى في بساطتها، أسعدتني كثيرا، ذكرتني بأيام الجامعة حين كنا نلتقي للحظات، نراوغ

ذاكرتنا المشتركة، نتعانق بالنظرات لا غير، هاهي سنوات الجامعة ولّت لنلتقي بعد خمس سنوات أطفأنا فيها خطايانا بعيدا عن الأمكنة، شاديين بالأمكنة:

الأماكن كلها مشتاقة لك...والعيون الّلي انرسم فيها خيالك...و الحنين الّلي سرى بروحي وجا لك ...وما هو بس أنا حبيبي...الأماكن كلها مشتاقة لك...

فأبكي و تبكي الأماكن لغيابك، كيف إذن لا أحن للأماكن التي قبّلت ذات مساء جنوننا فجُنّت ...و جننّا...منذ ذلك الحين سكننا الجنون ولم يغادرنا ...لكننا غادرنا ذلك المكان ...منذ سنوات، ها أنا اليوم أحتفي برؤيتك على أرض لم تستوعب بعدُ هذا الجنون، أرض كلها حياء...طيبة...هدوء... فرُحنا احتراما لها نمارس طقوسها فنصمت ونصمت ووحدها الرغبة تصهل ...تنفلت...

قلتُ بعد أن ضغطت بقوة على يدك:

-"سعيدة...سعيدة حدّ البكاء".

أجبت و أنت تمرر سبابتك على خدي كأنك تلاطف طفلا :

_"لا تبك أيتها الغبية...أنا هنا ...أنا معك..".

فتنزل رغما عني دموعي المشتاقة قبل أن تصلها كلماتك ...

مشينا معا إلى حيث يُقام عرس الأدباء الذي كان سبب زيارتك بلدتي...وكورق خريف أرتجف...أغتسل بما أغدقت به نظراتك...ورقة خريفية أنا، وشجرة شتاء عارية ...أنت، فلماذا سقطتُ من عمرك يا كلّ العمر؟ ولماذا أهملتني في الأواخر من هذا الشهر؟.

هي ذي أنا ...أعود مرة أخرى إلى بدائيتي الأولى، تعلم أنني امرأة أضناها الركض وراء كلماتك الهاربة وأتعبها تعب استعاراتك المستعرة وكناياتك المستترة. أريد أن تأخذ مرة أخرى حروفي بين أحضانك علّها تحبو على يديك، فتمد لها يد الحرف لتمشي من جديد نحو غد جديد...آه شاعري...متعب جدا هو الركض وراء حروفك، ومتعب أكثر هو غيابك. أتراك مثل الغيم حين تحزن تذهب بعيدا بألمك وحزنك لتخفي في أحد الصحاري الخالية دمعاتك وخيباتك ...مثلي أنا؟...

الوقت ظهر، والربيع يبتسم لأول مرة بعد شتاء قارس لم يهدأ إلا في أواخر مارس.تحدثنا معا، تذكرنا اللحظات التي سعدنا

بها ولم تسعدنا، تذكرنا نظراتنا، كلماتنا، حزننا الغريب. تذكرنا و ذكّرنا آذان العصر بموعد الرحيل .

سعدتَ كثيراً،شعرتُ بذلك، كانت يداك تساعدانك على تجسيد أقوالك كطفل بريء. قلت لك بسعادة:

-"تغيرت قليلا، لقد صرت تنكّت وتبتسم و أنت من يمتلك أكبر عرش للحزن".

أجبت والابتسامة لا تزال تطبع فرحة على شفتيك وتمنحك ملامح أخرى أجمل :

-" لقد نقل لي أصدقائي الذين يسكنون معي عدوى التنكيت، صدقيني حتى طاولة لو باتت معهم لأصبحت تنكّت ".

-" ولكن لا يزال السواد يسكنك ...أنظر...لا زلت ترتدي الأسود و يرتديك".

صمتنا قليلا ، كنا نجلس بالقرب من تلك البوابة التي تستقبل الضيوف، الجو كان متواطئا معنا، غطى الشمس بياض حزين بينما أبحرت أنا في حزنك وفي معطفك الحالك

السواد.مددت يدي إليك في شجاعة أذهلتك، ضممت يدي ،ومعها احتضنت عمري وصار بيدك أمري .

-" سمعت أنكَ كتبت محاولة روائية، أهي بحوزتك الآن؟".

ضغطت على يدي و أنت تطالع ملامح وجهي التي غابت عنك لسنوات ، ثم قلت بعد أن استعدت نبرتك المحاضرة:

-"لم أنهها بعد لكن يمكنك قراءتها فهي معي".

ودون أن أواسيك بكلمات تشجيع أو أفرط في الفرح، أمسكت بتلك الوريقات التي سحبتها من محفظتك تاركة يدك للفراغ طمعا في أن تفتش عن باقي الشهوة وترتدي ذاك الجنون الحزين الذي لطالما ارتديناه أيام جامعة النصر التي نصرت علينا أحزاننا أكثر من نصرتها الوطن ...

بعينين تعشق الورق و أنامل تفرط في الارتباك والقلق قلّبت الصفحات، أقرأ ما وقعت عليه من تعابير تشبه حزنك إلى حد كبير، أوقفتني كلمة لم أتوقع أن أجدها داخل روايتك، أو ربما كنت أخشى أن أجدها تندسّ مرة أخرى داخل كتاباتك مثلما وجدتها ذات لقاء جامعي:

-" ألم تتب عن هذا الاسم بعد؟ ألم تجد غيرها لتزين بها روايتك؟".

وبنبرة من يخشى اكتشاف أمر مريب أو يوجه له اتهام غريب ،قلت:

-"من؟؟؟".

ودون أن انطق بالاسم لفرط حقدي عليه، وضعت سبابتي اليسرى على كلمة " كريمة" موجهة إليك الصفحة لتراها.

-"لم أتعمد ذلك، ولا أظن أنني أقصدها".

-" بل أنت حتى الآن ما تزال تذكرها ولا تتوانى لحظة واحدة في تقبيلها بكلماتك وتزينها بأساليبك،و..."، و قبل أن أكمل وضعت إصبعيك:الوسطى والسبابة على شفتي فارتجفت وسكتت شهرزاد داخلي بعدما صاح الديك، وحان وقت العودة، وقفت مشيرة لساعة يدي، معتذرة عن رحيلي الذي كان لابد منه ،قلتَ كمن يلقي قصيدة:

-" أنت في حياتي كريمة أخرى...كلماتك...ارتباك خطك...نقاط الحذف برسالاتك...لا أقصد من وراء ذلك أنني لا

أفكر فيك إلا لأفكر بكريمة...لا... أنت إنسانة تجعلني أحزن، والأجمل من ذلك هو أنها تجعلني أعشق لحظة الحزن تلك ..."

ودّعتك بابتسامة حزينة، مشيتُ بضع خطوات، ارتعشت اللحظات وبكى القلب كما الأطفال، ثم بأعلى صوت صرخ، عدت أمحو تلك الخطوات التي مشيتها، كنتَ لا تزال واقفا على دهشتك، ترقب بسوادك الحزين رحيلي، قلت لك بعد أن تأملتك طويلا:

-" نبغيك..."

حينها اهتز ملكوت حزنك، أحسست بذلك لأن تردد اهتزازه قد أصاب بعضي، بل كلّي و أدركت أخيرا أنني استطعت أن أنحت على قلبك لحظة لن تنساها ولو أحببت ألف امرأة بعدي...ما من امرأة ستقولها لك في هذا المكان وعلى هذه الطريقة ، وفي مثل هذا الوقت المحاذي للجنون.رحلتُ بعدما تيقنت أنني أحمل الآن بعضا من أسلحتك البريئة التي ستحميني من رجولة حرفك ولو لشبه عمر.في تلك اللحظة توقف الكلام وابتلعت الريح آثارنا المنسية قرب ذلك الباب الهادئ.

....

جمعت رسائلك التي جادت بها أناملك يوما، أعدتها إلى مخبئها الذي لا يعرفه غيري وأنا أقول :"كان ينبغي أن تموت، رغما عني كان ينبغي أن أخفيك من عالمي ومن ذاكرتي مذ أشهرت في وجهي مسدسك الذي لم يكن يحمل سوى رصاصة واحدة كانت:"كريمة"، وقبل أن تصلني الرصاصة كنت قد مزقت أمامك وريقات "زمن الورقاء" بعد أن قتلتُ ياسر الذي تقمصت دوره وأخفيت نفسك فيه، كان بريئا ورغم ذلك قتلته بعدما قررتَ العودة إلى وطنك، إلى حزنك، إلى السياسة التي كانت تقف شراعا في وجه رياح حبنا فتسير و يسير لنصل في الأخير إلى شبه وطن ونصبح أشباه مواطنين لا أكثر.

يسكننا الفراغ والرغبة والرهبة، ونساء ناقصات عقل ودين يحلمن أن يخطفهن رجل كائنا من يكون من مدينة العنوسة تلك، فتسعدن وتخضبن أيديهن بالحناء استعداد لهذا العريس، إلا أنا...لم أهدك شيئا...لم أتزين لأجلك، كان الوقت لا يكفي لذلك ولا خيار أمامي سوى أن أختار الطريقة المناسبة لأقتلك بعدما قتلت كل أحاسيس المرأة الجميلة داخلي، ودعني أحتفي بموتك على يدي مادمت قد تمردت على قانوني وخنت ثقتي وأنت تعلم أن عالمك ينتهي عندي وأن كل الأشياء ليست إلا تجليات لشيء واحد

وفريد كما قال الخيميائي ، أنسيته هو الآخر مثلما نسيتني. ودعني لا أكون في حياتك مجرد عابرة سرير وعابرة خطيئة منتظمة...و...جوع ...دع هاتفي هو الآخر يرتاح من اهتزازة كل ليلة على طاولة شوق، ففي النهاية لن يحصل إلا على طاولة شوك، صار مثلي لا يغريه اللقاء بقدر ما يغريه البعد والفراق...أنظر...صرت أشبهك، أحترف الصبر كما تفعل أنت دائما، تعلمته قهرا منك وصرت أنضج بهدوء على حزنك مثلما ينضج الفول السوداني على رمال أدرار الحارقة، فلا تغريني بعد اليوم بالصبر.

سنوات كثيرة مضت، اختلفنا... ابتعدنا... تهنا... وتقاطعت كلماتنا عند منعرج النسيان، أفلا كنت رسمتنا على مربع غريماس المبني على التقابل والتضاد، يشبهنا حقا، يفهمنا جيدا حين يرمي بكل واحد منا إلى زاوية لا تحقق معها التقابل بقدر ما تحقق التضاد.

كان الشاطئ أشبه بجزيرة هجرها عشاقها، عافها صيادوها بعدما ماتت أسماكها، وكنت أنا هنا أتعقب أشواقك... عفوا...أشواكك التي كانت تهاجر مع النوارس إلى الضفة الأخرى

وأنظف ما علق من خطاياك على نعلي وفي طرف ثوبي الأسود الذي كان يشبهك أكثر مما يشبهني ويتواطأ مع حزنك أيضا. وهناك فوق موج البحر الحزين تنقل وجهك الأسمر، حزينا كعادته، وبجواره وريقات بيضاء وبيدك محفظة، متأكدة أن كلماتك كانت في صراع داخلي مع كلماتي حتى أن صوت شجارها وصلني، فكيف لم تنتبه لها و أنت تدعي أنك أستاذ لغة ؟.

لوّحت لك...لوّحت بكلتا فرحتي وراحتي... ناديتك مهرولة والمطر ينزلق على وجهك، كأنما من الخطايا يغسلك، وصورتك تُمحى خطيئة فخطيئة وقطرة فقطرة...ويهطل المطر...أخيرا اغتسلت جميع ملامحك وأجزائك و إذا بالمطر قد أذابك و محى آثارك التي ذابت كملح البحر لتزيده ملحا على ملحه دون أن يأبه.

ها أنت يا شاعري...مرة أخرى رحلت... فرُحت بقطرات المطر أغسلك مما ترسب فيك من ألم ولم أعلم أنني غسلت كامل ذاكرتك منها ... ومني...وقد نويت أن تغسلها منها فقط ...من كريمة...لا غير...رحلت أخيرا يا شاعري...قررت أن تتركنا معا مقدما حروفك قربانا للصمت ... والفجيعة...رحلت و لم تترك سوى سيفك ولباسك الإمبراطوري الذي بهرني يوما... وذاك العرج

الذي كان على حصانك منقوشا على بلاط ذاكرتي لتمطر بغزارة ... الصور... فتسكن أنت هذا الصمت ... وأسكن أنا ذاك الحلم...

....

بعد سنوات قرأ قصتها فكتب لها خطابا:

"غاليتي:

أن يُكتب عمرك على هامش صفحة قد يعني ذلك أنّ في حياتك ما يستحق.. فالحياة الحقيقية هي تلك الّتي يصنعها الهامش باقتدار ثمّ ينسحب تاركا للغوغاء كلّ الأضواء القذرة".

هكذا أجابها وانسحب تاركا لها أن تعتز بهامشية العلاقة التي جمعتهما على الورق دهرا وفي الواقع حينا من الدهر علّمها طيلة كلّ الفجائع الماضية كيف تقتات من جثة أحلامها على أمل اللقاء وعلّمته أنّ الحب مزيج من الكذب المتبادل وشعرة من صبر يمدّ في عمرها صبر طرف عاشق ليس إلاّ...

في الحبّ كما في الحلم الجميل لا ينبغي أن تستيقظ لأنّك إن فعلت تبخّر كلّ شيء...

على هامش صفحة مضى بعض العمر وعلى هامش صفحة أخرى قضى كلّ الحلم...

قال لها إنّ اسمها بلقيس ولكن لسوء حظّها لا هدهد ينقل الأخبار الجميلة في هذا الزمن البوار ولا سليمان في هذا الزمن يهتم لأمر يحمله طائر من سبأ إلى قلبه ولا جان باستطاعته إحضار عرشها قبل خفقة من قلبه أو حتى قبل أن ترتدّ إليه إنسانيته.. فمذ رحلت بلقيس بح صوت الناي وارتحل البجع إلى غير رجعة...

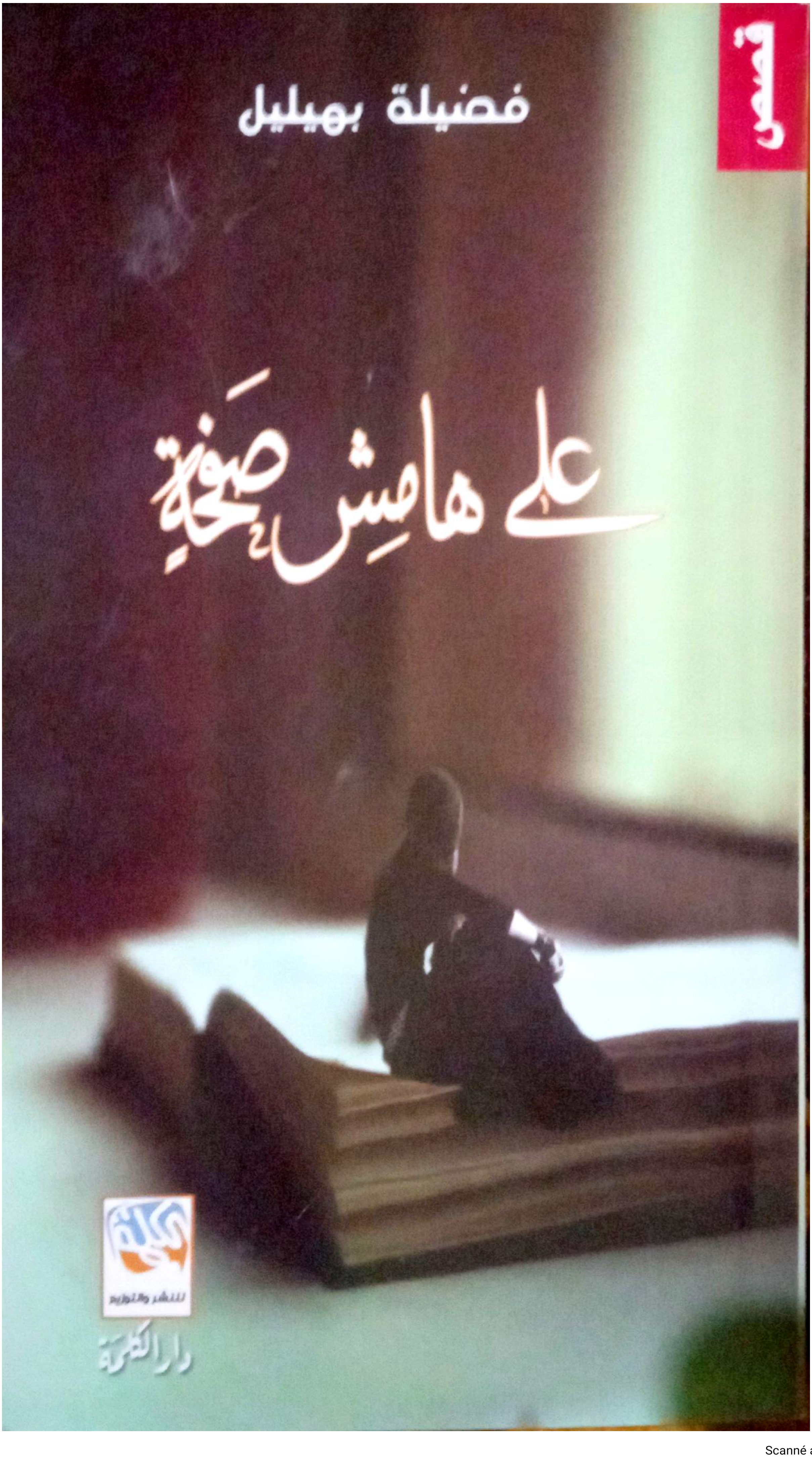

Scanné avec CamScanner

المكتبة الوطنية الجزائرية 2016
ردمك : 978-9931-643-07-4
الإيداع القانوني : السداسي الثاني 2016

الناشر : © دار الكلمة للنشر والتوزيع
البريدالإلكتروني: darelkalima@gmail.com
عنوان الكتاب : على هامش صفحة
الكاتبة : فضيلة بهيليل
الطبعة الأولى
تصميم الغلاف : إبراهيم ينينه

Scanné avec CamScanner